

ديوان الإمام الشافعي

المُسَمَّى

البحر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس

إعداد وتعليق وتقديم
محمد إبراهيم سليم

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير

٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - المنزهة
مصر الجديدة القاهرة ت ٢٤٧٩٨٦٣ / ٢٤٨٠٤٨٣

مكتبة ابن سينا

نافذتك على الفكر العربي
والعالمى بما تقدمه لك من روائع
الكتب العلمية والفنية والراثية
التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

يديرها ويشرف عليها
مهندس / مصطفى عاشور

جميع الحقوق محفوظة للناسِر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع
هداهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فماذا أقول في إمام يلتقى مع الرسول ﷺ في عبد مناف ، ثم ينتهى به النسب
الكريم إلى عدنان ؟

وكان كما يقول ابن خلكان :

« كثير المناقب ، جم المفاخر ، منقطع القرين ، اجتمع فيه من العلوم : العلم
بكتاب الله عز وجل ، وسنة الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ،
وآثارهم ، واختلاف أقاويل العلماء ، وغير ذلك من معرفة كلام العرب ، واللغة
العربية ، والشعر حتى إن الأصمعيّ — مع جلالة قدره — قرأ عليه شعر الهذليين
وذلك ما لم يجتمع في غيره » ؟!

وماذا أقول في إمام قال عنه الإمام أحمد بن حنبل حينما سأله ابنه :

أى رجل كان الشافعى ؛ فإنى سمعتك تكثر الدعاء له ؟

فقال : « يا بنى ، كان الشافعى كالعافية للبدن ، وكالشمس للدنيا !!

هل هذين من خلف ، أو عنهما من عوض ؟! » .

ويجيب التاريخ — على تعاقب عصوره :

لا .. لا .. لا عوض عن الشمس للدنيا .. ولا عوض عن العافية للبدن ..
ولا عوض عن محمد بن إدريس لخلقات الدرس والبحث .

ومن أجل هذا كانت كل كلمة بدرت منه حكمة وكل عبارة قالها حقيقة ،
وكل نظرة في الحياة كانت ثابتة تحمل إلينا تجربة ، فكيف لا نقبل على ديوانه ؟! ولم

لا يدرس أبناؤنا في مدارسهم أشعاره ليضيفوا إلى حياتهم حياة وخبرة وتجربة
ونظرات صائبة ؟!

واليك موجز ترجمة الإمام لتابع خطاه ، وتمشى على هداه .

صاحب الديوان

كما جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن
أبي عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبى ، يجتمع مع
رسول الله ﷺ في عبد مناف ، وباقي النسب إلى معد بن عدنان معروف .

لقى جده شافع رسول الله ﷺ وهو مترعرع وكان أبوه السائب صاحب راية
بنى هاشم يوم بدر ، فأسير وفدى نفسه ، ثم أسلم فقبيل له : لِمَ لَمْ تسلم قبل أن
تفدى نفسك ؟! فقال : ما كنت لأحرم المؤمنين مطعماً لهم فتي .

وكان الشافعي كثير المناقب ، جمّ المفاخر ، منقطع القرين ، اجتمعت فيه من
العلوم بكتاب الله عز وجل وسنة الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم
وآثارهم ، واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية
والشعر ، حتى إن الأصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين
مالم يجتمع في غيره ، حتى قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما عرفت ناسخ
الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعي .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ما رأيت رجلاً قط أكمل من الشافعي ،
وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبي : أى رجل كان الشافعي ؟ فأبى سمعتك
تكثر من الدعاء له . فقال : يا بني ، كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية
للبدن ، فهل لهذين من خلف أو عنهما من عوض ؟ .

وقال أحمد : ما بت ليلة منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له .

وقال يحيى بن معين : كان أحمد بن حنبل يَنْهَانَا عن الشافعى ، ثم استقبله يوماً والشافعى راكب بغلة وهو يمشى خلفه ، فقلت له يوماً : يا أبا عبد الله ، تنهانا عنه وتمشى خلفه ؟! فقال : اسكت لو لزمتم البغلة لانتفعت .

وحكى الخطيب فى تاريخ بغداد عن ابن عيد الحكم : أنه قال : لما حملت أم الشافعى به رأت كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقضَّ بمصر ، ثم وقع فى كل بلد منه شظية ، فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر ، ثم يتفرق فى سائر البلدان .

وقال الشافعى : قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت الموطأ فقال لى : أحضر من يقرأ لك ، فقلت : أنا قارئ فقراءت عليه الموطأ حفظاً ، فقال إن يك أحد يفلح فهذا الغلام ! .

وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شئ من التفسير أو الفتيا التفت إلى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام ! .

وقال الحميدى : سمعت الزنجى بن خالد — يعنى مسلماً — يقول للشافعى : أفْتِ يا أبا عبد الله لقد — والله — آن لك أن تُفتى وهو ابن خمس عشرة سنة .

وقال محفوظ بن أبى نوية البغدادى : رأيت أحمد بن حنبل عند الشافعى فى المسجد الحرام ، يحدث فقلت : يا أبا عبد الله ، هذا سفيان بن عُيَيْنَةَ فى ناحية المسجد يحدث ، فقال : إن هذا يفوت وذاك لا يفوت .

وقال أبو حسان الزيادى : ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعى ، ولقد جاءه يوماً فلقبه وقد ركب محمد بن الحسن ، فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل ، ولم يأذن لأحد عليه . والشافعى أول من تكلم فى أصول الفقه ، وهو الذى استنبطه .

وقال أبو ثور : من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس فى علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب . كان منقطع القرين فى حياته فلما مضى لسبيله لم يُعْتَضْ منه .

وقال أحمد بن حنبل : ما من أحد بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته
مِنة .

وكان الزعفراني يقول : كان أصحاب الحديث رقوداً حتى جاء الشافعي
فأيقظهم ، فتيقظوا .

ومن دعائه : « اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير » وهو
مشهور بين العلماء بالإجابة وأنه مجرب ، والله أعلم .
وفضائله أكثر من أن تُعد .

ومولده سنة خمسين ومائة ، وقيل : إنه وُلد في اليوم الذي مات فيه الإمام أبو
حنيفة رضي الله عنه ، وكانت ولادته بمدينة غزة وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن
ستين ونشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم ، وحديث رحلته إلى مالك بن أنس مشهور ،
وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر ، وكان
وصوله إليها في سنة تسع وتسعين ومائة ، ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم
من رجب سنة أربع ومائتين ، ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى ، وقبره
يزار بها بالقرب من المقطم ، رضي الله عنه ! .

قال الربيع بن سليمان المرادي : رأيت هلال شعبان وأنا راجع من جنازته ،
وقال : رأيته بعد وفاته في المنام ، فقلت : يا أبا عبد الله ، ما صنع الله بك ؟ فقال :
أجلسني على كرسي من ذهب ، ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب .

وحكى الزعفراني عن أبيه : أن الشافعي قال : مات أبي وهو ابن ثمان وخمسين
سنة .

وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل العلم والتفسير والفقه والنحو وغير ذلك على
ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه ، وعِفّة نفسه ، وحُسْن سيرته ،
وعُلُو قدره وسخائه ، وله أشعار كثيرة .

شخصية الشافعي

إذا ذهبنا نتقصي شخصيته الإنسانية وجدناها غاية في القوة والسمو والحيوية ،

وتعدد الجوانب وسعة الأفق ، وذلك بالإضافة إلى ما أثر عنه من براعة وذكاء^(١) .
يتحدث عنه الذين عاصروه أنه كان محبباً إلى نفوس عارفيه ، وكان إشعاعه ،
ولباقة وحسن حديثه يكسبه حب الناس وثقتهم ، وأنه قد توافرت له صفات الداعية
صاحب المذهب ، هذه الصفات التي تتمثل فيما أثر عنه من طول أناة وحلم ،
وابتسام ثغر ، وإشراق وجه ، وبعد عن الغضب ، وتواضع ، وخفض جناح ،
وسلامة صدر ، وصفح عن يسيء إليه ، وبُعد عن التعصب وإملاء الرأي .. فقد
كان يعذر مخالفيه في الرأي ويقبل منهم .

ويرجع ذلك إلى تلك الأصالة النفسية التي كونت طابعه ، طابع الزعامة .
وقديماً كان الصوت الجميل ، وطلاقة اللسان من أدوات الداعية الفذ .
ويرجع السر في فصاحة « الشافعي » إلى أنه أقام بالبادية فلُقّن اللسان العربي .
إنه نموذج فذ ، وقدوة صالحة ، نعيش معه في أفكاره ، وتجاربه ، وتتعلى لنا من
خلال شعره فلسفته في الحياة في وقت تشتد فيه الحاجة إلى خلاصات التجارب
السلوكية في البيئة العربية لتنتفع بها ، وتسير في هديها .
إن في أشعاره من التركيز ، ونفاذ البصيرة ، ودقة الملاحظة وحسن التعبير
ما يجعل الألسنة تتلقفها ، فتذيع وتنتشر وتصبح سلوكاً وعملاً ومنهجاً لحياة راضية
آمنة .

الجوهر النفيس في شعر

الإمام محمد بن إدريس

جاء في كتاب التوجيه الأدبي :

« يُكثر الشعراء من نظم أبيات يضمونها نظرة فلسفية في الحياة ، وهذا الضرب

(١) مجلة الرسالة الأستاذ أنور الجندى العدد ٩٩٠ سنة ١٩٥٢ م .

من النظم قد أطلق عليه اسم « الأدب » على وجه التخصيص ، وقد تتخذ هذه الأشعار صورة النصيحة والإرشاد كقول محمد بن بشير :

لا تَيْأَسَنَّ وإن طالت مُطالِبَةٌ إذا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أن تَرَى فَرْجًا
أُحْلِقُ يَدِي الصَّبْرُ أن يَحْطَى بِحَاجَتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلْجَا

وهذا الضرب كثير جداً في الشعر العربي .
والنوع الثاني : أن يعتمد الشاعر إلى تقرير الحقيقة المجردة كقول أبي الطيب ، وهو من أكثر الشعراء نظماً في هذا الباب :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن
وباب الأدب من أشرف أبواب الشعر وأسمائها ، وأبياته الجيدة كثيراً ما تجرى مجرى الأمثال ، وليس في أبواب الشعر باب يكثر الاستشهاد به كباب « الأدب » .
ومن هنا كان « ديوان الشافعي » كنزاً من كنوز الأدب ، ونبعاً صافياً يستقى منه الأبناء والآباء دروس الحكمة ، وألوان التجارب الحياتية يقدمها إمام كان كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس !

إنه عالم قريش الذي ملأ طباق الأرض علماً . وحسبه ما قاله الأئمة فيه :
فيقول المبرد : كان الشافعي من أشعر الناس وآدب الناس .

ويقول ابن هشام : الشافعي كلامه لغة يحتج بها .

ومن يتتبع ديوانه يجد أنه كان يميل إلى المقطعات دون القصائد ، وأن شعره من السهل الممتنع ، فلا تكاد تعثر فيه على غريب ، ومن أجل هذا سهل الاستدلال به والاقتباس منه .

ولقد امتلأت به المراجع والموسوعات اللغوية والأدبية وتناثرت منه مقطعات في كتب الفقه والحديث وتناقلها رواد الحكمة جيلاً بعد جيل ، فعاشت على كل لسان ، وراح يرددها الرائع والغادي !

ومن يتتبع أبواب الشعر من المدح والهجاء ، والغزل ، والفخر ، والاعتذار يجد أن

الشافعي قد نأى عنها بجانبه .. ومن هنا نرى أن لشعره مذاقاً خاصاً ، وطعمًا محبوبًا
مفضلاً لدى الخاصة والعامة !

إنه يقول :

ولولا الشعر بالشعراء يزرى لكنت اليوم أشعر من ليل

لقد اختار أفضل الشعر ، وأشرف أبوابه وأسمائها مما لا يزرى به ، ولا يحط من
قدره ؛ وإن دارس شعره ليلمس فيه تركيزاً على العقيدة الصحيحة في الله ، والكون ،
والحياة ، وهى أساس البناء الذى يضعه الإسلام لتكوين المسلم ، وهى القوة الدافعة
للحياة كما يراها الإسلام . ومنها يستمد طاقته ، وبها يحدد طريقته ، ويبلغ غايته .

ولقد جُمع ديوان الشافعي من قبل ولكنه لم يعرض على الصورة اللائقة به ، والتي
تحقق الانتفاع الكامل بما جاء فيه . فما هكذا يعرض شعر الحكمة والنصح والإرشاد
والخبرة والتجربة الحياتية . إن عرض المقطوعات في إطار الجو النعسى الذى قيلت فيه ، ومعايشة القارئ
للظروف التى انفع بها الشاعر ، والتمهيد لكل مقطوعة ، والتعليق عليها مما يجعل
القارئ يحيا مع الشافعي ويعيش تجربته ويفتح لها قلبه وعاطفته فتوثى أكلها وتحقق
الهدف المرجو منها ، وتتيح للقاعدة العريضة من القراء الاستفادة أكثر ومتعة أفضل ،
وسعادة أجمل .

وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ، فقد حرصت كل الحرص على اختيار العنوان
الملائم لكل مقطوعة . ولم يفتنى أن أرجع إلى ما تضمنته كتب الأدب من تلك
المقطوعات ، إلى جانب مخطوطة الديوان .

ولم يكن بُد من أن أدرس حياة الشافعي باحثاً عن الأسباب والدوافع وراء
كلماته ! والتجارب التى عاشها ، والأحداث التى مر بها .

ومهما يكن من شئ فسوف يلمس القارئ معالجة جديدة ، وإضافات فريدة ،
ودراسات مفيدة .

ولعلى بذلك أكون قد أحسنت . والله من وراء القصد ،،
القاهرة فى ... الحرم سنة ١٤٠٩ هـ — سبتمبر سنة ١٩٨٨ — محمد ابراهيم سليم

من تجارب الإمام

(مع الأيام — مع النفس — مع القضاء)

ثلاث تجارب في ثلاثة عشر بيتاً جديدة بالنظر والتأمل ..

التجربة الأولى — مع الأيام :

- ١ — دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ وَطَبَّ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
- ٢ — وَلَا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
- ٣ — وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوَالِ جَلَدًا وَشِمَتِكَ السَّمَاةُ وَالرِّفَاءُ

التجربة الثانية — مع النفس :

- ٤ — وَإِنْ كَثُرَتْ غُيُوبُكَ فِي الْبَرَائَا وَسَرَكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ
- ٥ — تَسْتَرِ بِالسَّخَاءِ فَكُلُّ غَيْبٍ يُعْطِيهِ — كَمَا قِيلَ — السَّخَاءُ
- ٦ — وَلَا تُرِ لِلْأَعْدَاءِ قَطُّ ذُلًّا فَإِنْ شِمَاتَةَ الْأَعْدَا بَلَاءُ
- ٧ — وَلَا تُرْجِ السَّمَاةَ مِنْ بَخِيلٍ فَمَا فِي النَّارِ لِلظُّمَانِ مَاءُ
- ٨ — وَرِزْقُكَ لَيْسَ يَنْقُصُهُ التَّائِي وَلَيْسَ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ الْعَنَاءُ
- ٩ — وَلَا حُزْنٌ يَدُومُ وَلَا سُرُورٌ وَلَا بُؤْسٌ عَلَيْكَ وَلَا رَحَاءُ
- ١٠ — إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قُتُوعٌ فَأَنْتَ وَمَالِكَ الدُّنْيَا سَوَاءُ

التجربة الثالثة — عندما ينزل بنا الموت :

- ١١ — وَمَنْ تَزَلَّتْ بِسَاحَتِهِ الْمَنَابَا فَلَا أَرْضٌ تَقِيهِ وَلَا سَمَاءُ
- ١٢ — وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلَكِنْ إِذَا تَزَلَّ الْقَضَا ضَاقَ الْفَضَاءُ
- ١٣ — دَعِ الْأَيَّامَ تُعْدِرُ كُلَّ حِينٍ فَمَا يُغْنِي عَنِ الْمَوْتِ الدَّوَاءُ

[جواهر الأدب ، وأدب الفقهاء]

وقفه مع النص :

١ — في البيت الأول دعوة إلى التسليم والرضى بحكم القضاء بعد أن يتخذ الإنسان الأسباب ، ويبدل الجهد . ولتطب نفسه بعد ذلك بما يكون .. ولتكن مشيئة الله مادام قد صح عزمه .

٢ — إن كثيراً من الناس يَتَقَدُّ صبرهم عند نزول أحداث الليالي ويجزعون ، ولكن هل تدوم الدنيا على حال ؟! جدير بك ألا تجزع عند الأحداث فليس لها بقاء ، ومع العسر يسر .

٣ — وعند الأهوال والشدائد تظهر الإخوان ؛ فكن رجلاً وتحلّ بالبذل والوفاء .
٤ ، ٥ — وكل منا يحب أن يستر عيوبه عن الناس (البرايا) وخير ما يستر العيوب البذل ، فكن معطاءً يستر الناس عيوبك .

٦ — الإسلام حريص على أن يبدو المسلمون في كامل قوتهم وعزتهم ، حتى لا يشمت بهم أعداؤهم . من أجل هذا كانوا أعزة على الكافرين وإن كانوا في واقعهم أدلة على المؤمنين ! وهنا ينصح لنا الإمام الشافعي : ألا تُرى الأعداء مِنَّا ذُلًّا لكيلا يشمتوا بنا والشماتة بلاء وأى بلاء !

٧ — البخيل عدو الله وعدو الناس لا جدوى منه ولا أمل فيه ومثله في حالة الشدة كمثل النار للظمان هل تروى عطشاً ؟! وهل يطمع إنسان أن يجد الرى والماء في النار ؟

٨ — رزقك مضمون ، والاعتدال في طلبه مطلوب ، فلا تراخى ولا إرهاق ، فإن المنتب لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . فلم التقاتل والتناحر والتكالب ؟

٩ — هكذا شأن الأيام : حزن وسرور ، وبؤس ورخاء ، ليس فيها شيء دائم وذلك يعطينا الأمل .

١٠ — القناعة هي سر السعادة ، ويبدو القنوع ومآلك الدنيا سواء .

١١ — ١٣ — عندما ينزل الموت فلا وقاية منه ولا مهرب ، فهو الداء الذى ليس له دواء ، فهل أعددت العدة ليوم اللقاء ؟!

الدعاء وهل يرد القضاء ؟!

الدعاء مُخَّ العبادة :

وقد طلب الله منا أن ندعوه : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وهناك من يحلو لهم أن يحتقروا الدعاء ويزدروه وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه « لا يرد القضاء إلا الدعاء » (رواه الترمذى وابن حبان) .

وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد .

وإذا كانت الليالي من الزمان حبالى يلدن كل عجيب ، فإننا لا ندرى ما فى ليل الأحداث من سهام مصوبة إلينا ..

إن لكل شئ أمدأ وغاية ، وللأمد انقضاء ، وتبقى الكلمة الحلوة على ألسنتنا :
يارب !

وينكر الإمام المجرب على من يهزءون بالدعاء صنيعهم فيقول :

- ١ - أَتَهْزَأُ بِالْدُّعَاءِ وَتَزْدَرِيهِ وَمَا تُدْرِي بِمَا صَنَعَ الْقَضَاءُ
 - ٢ - سِهَامُ اللَّيْلِ لَا تُحْطَى لَهَا أَمَدٌ ، وَلِلْأَمَدِ انْقِضَاءُ
- حب النساء وهل هو بلاء ؟!

كثر الحديث عن الحب ، وبعضهم يرى أن حب النساء بلاء ما بعده بلاء !
ولكن للشافعى رأياً يقرره فى بيتين ، ثرى ماذا يقول ؟

- ١ - أَكْثَرَ النَّاسِ فِي النَّسَاءِ وَقَالُوا : إِنْ حُبَّ النَّسَاءِ جَهْدُ الْبَلَاءِ
 - ٢ - لَيْسَ حُبُّ النَّسَاءِ جَهْدًا وَلَكِنْ قُرْبُ مَنْ لَا تُحِبُّ جَهْدُ الْبَلَاءِ
- وأراك تقول :

نعم إن قرب من لا نحب هو البلاء !

وقريب منه قول القائل :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقه بُدَّ

فراق الأُحبة !

المرء قليل بنفسه ، كثير بإخوانه ، وليس كثيراً ألف خلّ وصاحب !
فقد خُلِقَ الإنسان مدنياً بطبعه يحتاج إلى ألف يعاشره ، وأنيس يسامره ، فإذا
ما كان فراق الأُحبة أحس الإنسان بالوحشة وتمنى الموت بعدهم
وللإمام الشافعي أُحبة فارقهم في رحلاته ، فعاش تجربة الغربة ، ومرارة الفراق ..
إنه يقول :

« لا سرور يعدل صحبة الإخوان !

ولا غم يعدل فراقهم !

والغريب من فقد إلفه ، لا من فقد منزله ! »

ويقرر حسرته على فراق الإلف في البيتین الآتیین :

١ - واحسرةً للفتى ساعةً يعيشها بعد أودائِهِ

٢ - غمُّ الفتى لو كان في كفه رمى به بعد أجائِهِ !

❦

ب

قافية الباء

سوء التقدير

كم عانى الأدباء والشعراء والفقهاء والمفكرون من سوء تقدير مجتمعاتهم .

وفى الآيات الآتية شكوى حزينة من اختلاط المفاهيم وسوء التقدير ، وعدم
التفرقة بين الذهب والنحاس .

وياويل الأديب من مجتمع يساوى الرأس بالذنب !
إن الناس معادن .. فضل الله بعضهم على بعض .. فهل يستوى الذين يعلمون
والذين لا يعلمون ؟! يقول الشافعى :

- ١ — أَصْبَحْتُ مُطْرَحاً فِي مَعْشِرٍ جَهْلُوا
حَقَّ الْأَدِيبِ فَبَاغُوا الرَّأْسَ بِالذَّنْبِ
- ٢ — وَالنَّاسُ يَجْمَعُهُمْ شَمْلٌ وَبَيْنَهُمْ
فِي الْعَقْلِ فَرْقٌ ، وَفِي الْآدَابِ وَالْحَسَبِ
- ٣ — كَمَثَلِ مَا الذَّهَبُ الْإِبْرِيذُ يَشْرُكُهُ
فِي لَوْنِهِ الصُّفْرُ ، وَالتَّفْضِيلُ لِلذَّهَبِ
- ٤ — وَالْعُودُ لَوْ لَمْ تَطْبُ مِنْهُ رَوَائِحُهُ
لَمْ يَفْرِقِ النَّاسُ بَيْنَ الْعُودِ وَالْحَطَبِ !!

[معجم الأدباء لياقوت]

الهوى والعقل

ورد النهى الكريم عن اتباع الهوى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾

والهوى ميل النفس عن الحق إلى ما تشتهى ! وعلى الإنسان أن يحكم
عقله ويخالف هواه ، ويرشدنا الإمام الشافعى إلى ما يخرجنا من الحيرة حين
يختلط علينا الخطأ بالصواب .. إنه يقول :

- ١ - إِذَا حَارَ أَمْرُكَ فِي مَعْنَيْنِ وَمُ تَذَرِ حَيْثُ الْخَطَا وَالصَّوَابِ
٢ - فَخَالِفْ هَوَاكَ فَإِنَّ الْهَوَى يَقْدُودُ النَّفْسَ إِلَى مَا يُعَابِ

[مكاشفة القلوب]

هذه هي الدنيا !

يُخْتَبَرُ فِيهَا الصَّالِحُونَ ، وَيَتْلِيهِمُ اللَّهُ بَشَىءَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفَسِ وَالثَّمَرَاتِ ..

وَيُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ .

كَمْ فِيهَا مِنْ مَفَارِقَاتٍ جَاعَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ كَرَامَةً وَشَبِعَتْ فِيهَا بَطُونَ الْبَهَائِمِ !
الْأَسْوَدُ وَهِيَ مَلُوكُ الْغَابَةِ تَمُوتُ جُوعًا ، بَيْنَمَا الْكِلَابُ تَتَنَعَّمُ بِمَا لَدَ وَطَابِ مِنْ لَحُومِ
الضَّأْنِ !

وَمَنْ عَجَبَ أَنَّكَ تَجِدُ مِنْ ذَوَى الْجَسَبِ مَنْ يَفْتَرِشُ التَّرَابَ .. بَيْنَمَا يَنَامُ الْعَبِيدُ عَلَى
حَرِيرٍ ! وَلِلَّهِ فِي خَلْقِهِ شَتُونَ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ فِي نَظَرَةِ تَأْمِلِيَّةٍ إِيْمَانِيَّةٍ :

- ١ - تَمُوتُ الْأَسَدُ فِي الْعَابَاتِ جُوعًا وَلَحْمُ الضَّأْنِ تَأْكُلُهُ الْكِلَابُ
٢ - وَعَبْدٌ قَدْ يَنَامُ عَلَى حَرِيرٍ وَذُو نَسَبٍ مَفَارِشُهُ التُّرَابُ

عندما تقترب نهاية الإنسان !

ويشتعل الرأس شيئا !

- ١ - حَبَّتْ نَارُ نَفْسِي بِاشْتِعَالِ مَفَارِقِي
وَأظْلَمَ لَيْلِي إِذْ أَضَاءَ شِهَابُهَا

٢ - أَيَا بُومَةٍ قَدْ عَشَّشَتْ فَوْقَ هَامَتِي

- عَلَى الرَّغِمِ مِنِّي - حِينَ طَارَ غُرَابُهَا

٣ - رَأَيْتِ خَرَابَ الْعُمْرِ مِنِّي فَرَزْتَنِي

وَمَا أَوَّاكَ مِنْ كُلِّ الدِّيَارِ طَرَابُهَا

٤ - أَلْأَنَّمْ عَيْشًا بَعْدَمَا حَلَّ عَارِضِي

طَلَّاعَ شَيْبٍ لَيْسَ يُعْنَى خِضَابُهَا !؟

٥ - وَعِزَّةُ عُمْرِ الْمَرْءِ قَبْلَ مَشْيِيهِ

وَقَدْ فَيَتْ نَفْسٌ تَوَلَّى شَبَابُهَا

٦ - إِذَا اصْفَرَّ لَوْنُ الْمَرْءِ وَابْيَضَّ شَعْرُهُ

تَنْغَصَ مِنْ أَيَّامِهِ مُسْتَطَابُهَا

٧ - فَدَعْ عَنْكَ سَوَاءَ الْأُمُورِ فَإِنِهَا

حَرَامٌ عَلَى نَفْسِ التَّقَى ارْتِكَابُهَا

٨ - وَأَذِّ زَكَاةَ الْجَاءِ وَاعْلَمْ بِأَنَّهَا

كَمُلَ زَكَاةُ الْمَالِ ثُمَّ نِصَابُهَا

٩ - وَأَحْسِنِ إِلَى الْأَخْرَارِ تَمْلِكُ رِقَابَهُمْ

فَخَيْرُ تِجَارَاتِ الْكِرَاءِ اكْتِسَابُهَا

١٠ - وَلَا تَمْشِينَ فِي مَنْكِبِ الْأَرْضِ فَاحِرًا

فَعَمَّا قَلِيلٍ يَحْتَوِيكَ ثَرَابُهَا

١١ - وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّي طَعَمْتُهَا

وَسِيقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا

١٢ - فَلَمْ أَرَهَا إِلَّا غُرُورًا وَبَاطِلًا

كَمَا لَاحَ فِي ظَهْرِ الْفَلَاةِ سَرَابُهَا

١٣ - وَمَاهِيَ إِلَّا جِيفَةً مُسْتَحِيلَةً

عَلَيْهَا كِلَابٌ هُمُّهُنَّ اجْتِدَابُهَا

١٤ - فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سَلَامًا لِأَهْلِهَا

وإن تَجْتَنِبْهَا نازعتك كِلَابُهَا

١٥ - فَطُوبَى لِنَفْسٍ أُولَعَتْ قَعْرَ دَارِهَا

مُعَلَّقَةَ الْأَبْوَابِ مُرَحَّى حِجَابِهَا

وقفه مع النص :

١ - عندما اشتعل الرأس شيباً ، وبدا الشيب في مفرق الرأس انطفأت نار حماستى وهمتى !

وعندما أضاء الشيب ليل شعرى .. أظلم ليلى وضعف بصرى !

٢ - ومنذ أن ذهب سواد شعرى وحل محله ذلك الشيب الأبيض أحسست أنه قد طار غراب رأسى لتعشش فيه تلك البومة البيضاء !

٣ - وما ذلك إلا لأنها رأت خراب العمر منى فزارتنى ، ولا عجب ؛ فمأواها في كل الدنيا الديار الخربة !

٤ - وعندما يرى الإنسان نذير الشيب وطلائعه بصفحتى خده لا يتسنى له أن ينعم عيشاً حيث لا يجدى صبغ الشيب !

٥ - لا عزة للمرء بعد مشيبه ، فعندما يتولى الشباب تفنى النفس .. وعزة عمر المرء قبل المشيب ، وعلى الإنسان أن يستثمر شبابه فيما يعود بالنفع .

٦ - وعندما يصفر لون المرء ، ويبيض شعره يذهب صفاء الحياة ونعيمها ، ويحل الكدر ، ويُمسى منغصاً فلا شيء في حياته يُستطاب ويُستلذ !! إنها سُنَّة الحياة !!

٧ - وعلى المرء أن يهجر - على الفور وقبل حلول الشيب - قبيح الأمور وما ساء فعله منها ، فحرام أن يرتكبها تقى يخشى الله ويخافه .

٨ - وعلى الإنسان - عندما يكتمل شبابه - أن يؤدى زكاته شاكراً لله أنعمه .. فالشباب نعمة .. والجاه والمنزلة نعمة والمال نعمة .. ولكل نعمة زكاة .. وكما أن المال

تجب فيه الزكاة إذا اكتمل النصاب فكذلك نعمة الجاه والشباب !

٩ — إن أحسن ما يتاجر فيه الكرام اكتساب الأحرار بالإحسان إليهم كما قال آخر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

١٠ — وعلى العاقل أن يأخذ العبرة ، فيتخلى عن الكبر والتفاخر كما قال آخر :

* ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً *

فغداً يحتويه التراب ، ويصبح تراباً ، ويصح فيه قول أبي العلاء :

خفف الوطء ، ما أظن أديم الأرض ض إلا من هذه الأجساد !!

١١ ، ١٢ — من يذق الدنيا حلوها ومُرّها ، وسعادتها وشقاءها يتبين له أنها ليست إلا غروراً وباطلاً ، وسراباً كذلك الذى يحسبه الظمآن فى الصحراء ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً !!

١٣ — إن الذين يقتتلون عليها ليسوا إلا كلاباً حول جيفة استحالت وتغيرت وأنتنت وكل همهم اجتذابها .

١٤ — ومن يبيع السلامة لنفسه يجتنبها ؛ فإنه إن شارك فى اجتذابها نازعته كلابها !

١٥ — والحلّ : أن يلجأ إلى قعر داره ، وأن يُعَلّق الأبواب ويُرخى الأستار والحجاب لعله يبعد عن تلك الكلاب وطوبى له بهذا البُعد !

والإمام الشافعى لا يرضى للمسلمين أن يقتتلوا على الدنيا كالكلاب وإنما يدعو إلى التخلّى عن الرذائل والتحلّى بالفضائل والبذل والإحسان إلى الأحرار والتواضع ليسعد الجميع بالحياة فى ظل شريعة الله !

ولا يظن أحد أن الآيات تحمل دعوة إلى الانعزالية أو السلبية وإنما هى نظرات فى الحياة وأخذ العبرة منها !

سلوك الكبار مع الأنذال

النذل الحقير يحقد على الأفاضل فضلهم وشرفهم ، وكل همهم أن ينال منهم ويلوث

سمعتهم ، فما أسرع ما ينال من الشرفاء بسبهم !

والإمام الشافعى — وقد ابتلى بمثل هؤلاء — يرى : أن يتزايد الإنسان رفعة ، فلا ينزل إلى مستواه .

إن هذا هو الصواب ، وليس عيباً ، إنما العيب أن نبادله سباً بسب ، وألا نترفع عن سبه .

ألا وإن هذا السلوك القويم ينبع من تقدير الإمام لنفسه ، وعزتها عليه ، وإلا لمكنها من كل نذل حقير لتكيل له الصاع صاعين .

وأراك تسألنى :

من النذل ؟

وأجيب : كل من كان خسيس الأصل حقيراً فهو نذل والجمع أنذال .

وتعود فتسأل : ماذا قال الشافعى فى معاملة الأنذال ؟

ويجب الشافعى :

١ — إِذَا سَبَّنِي نَذْلٌ تَزَايِدَتْ رِفْعَةً

وما العيب إلا أن أكون مُسَابِيَهُ

٢ — وَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَفْسِي عَلَى عَزِيزَةٍ

لمكنّها من كُلِّ نَذْلٍ تُحَارِبُهُ

٣ — وَلَوْ أَتَيْتَنِي أَسْعَى لِنَفْسِي وَجَدْتَنِي

كَثِيرَ التَّوَانِي لِلَّذِي أَنَا طَالِبُهُ

٤ — وَلِكِنِّي أَسْعَى لِأَنْفَعِ صَاحِبِي

وَعَارٌّ عَلَى الشُّبْعَانِ إِنْ جَاعَ صَاحِبُهُ

وأراك تقول بعد هذه النصيحة الغالية :

إن الشافعى ليس أنانياً ولكنه يؤثر غيره على نفسه ، ومن أجل ذلك نراه يسعى

لينفع صاحبه ، فعار على الشيعان أن يبيت وجاره جائع !

داو السفاهة بالحلم

كل من جَرَّب أن يَرَدَّ على سفيه خفيف جاهل طائش ندم على ما كان منه !
إننا لن نسلم من لسانه ، وقد يتطور الموقف إلى ما لا تحمد عقباه ، ومن أجل هذا
يقدم الشافعي — رضى الله عنه — أعلى نصائحه : الصمت والصبر . شأنه شأن عود
« البخور » كلما زاد إحراقه انتشرت رائحته العبقة الفواحة وشذاه العطر الجميل ..
ألا تراه يقول :

- ١ — يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ فَأُكْرِهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيبًا
٢ — يَزِيدُ سَفَاهَةً فَأَزِيدُ حِلْمًا كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طِيبًا

البُخل .. والظلم

لقد اختبر الشافعي أبناء الدنيا فلم ير فيهم إلا بخيلاً وظالماً .

فكيف عامل هؤلاء وأولئك ؟

أما البخيل فعلينا أن نقطع الرجاء منه بسيف القناعة ، فالغنى ليس بكثرة المال ،
ولكنه غنى عن المال ، والغنى الحق من استغنى عما في أيدي الناس .

أما الظالم فالله منتقم ولن يفلت من صروف الليالي وأحداثها ، وفي التاريخ عبرة لمن
أراد أن يعتبر ، يقول الشافعي :

- ١ — بَلَوْتُ بَنِي الدُّنْيَا فَلَمْ أَرِ فِيهِمْ
سَوًى مِنْ غَدَا وَالْبُخْلُ مِلْءُ إِهَابِهِ

- ٢ — فَجَرَدْتُ مِنْ غَمْدِ الْقَنَاعَةِ صَارِمًا
قَطَعْتُ رَجَائِي مِنْهُمْ بِذُبَابِهِ
- ٤ — فَلَا ذَا يَرَانِي وَاقِفًا فِي طَرِيقِهِ
وَلَا ذَا يَرَانِي قَاعِدًا عِنْدَ بَابِهِ
- ٥ — غَنَى بِلَا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَلَيْسَ الْغِنَى إِلَّا عَنِ الشَّيْءِ لَا بِهِ
- ٦ — إِذَا مَا ظَالِمٌ اسْتَحْسَنَ الظُّلْمَ مَذْهَبًا
وَلَجَّ غُثًّا فِي قِيحِ اكْتِسَابِهِ
- ٧ — فَكَلَهُ إِلَى صَرْفِ اللَّيَالِي فَإِنِهَا
سَتَدْعِي لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ
- ٨ — فَكَمْ رَأَيْنَا ظَالِمًا مُتَمَرِّدًا
يَرَى النُّجُومَ تَبَاحًا تَحْتَ ظِلِّ رِكَابِهِ
- ٩ — فَعَمَّا قَلِيلٍ وَهُوَ فِي غَفْلَاتِهِ
أَنَاخْتُ صُرُوفَ الْحَادِثَاتِ بِبَابِهِ
- ١٠ — فَأَصْبَحَ لَا مَالَ وَلَا جَاهَ يُرْتَجَى
وَلَا حَسَنَاتٍ تَلْتَقِي فِي كِتَابِهِ
- ١١ — وَجُوزِي بِالْأَمْرِ الَّذِي كَانَ فَاعِلًا
وَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ سَوْطَ عَذَابِهِ

وقفه مع النص :

- ١ — لقد بلا الشافعي بني دنياه واختبرهم فلم ير فيهم إلا من ملأ بُخْلًا فاحتوى جلده على البُخل !
فماذا فعل ؟

٢ — لقد تسلح بالقناعة — والقناعة كنز لا يفنى — واستل من غمدها سيفاً صارماً قاطعاً يقطع كل أمل وكل رجاء في مثل ذلك البخيل — بذبابه وحده .
٣ — وبسيف القناعة انقطع عن ذلك البخيل فلم يعد أحد يراه واقفاً في طريقه أو عند بابه ؛ فلقد استغنى عنه !

٤ — إن الغنى غنى النفس .. والغنى غنى عن الشيء واستغناء عنه لا غنى به ، فهو ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .
دخل أعرابى البصرة فسأل صفوة من الناس : من سيد هذا المصر ؟
فقالوا : الحسن البصرى .

قال : بم ساد أهله ؟

قالوا : استغنى عما في أيديهم من دنياهم ، واحتاجوا إلى ما عنده من أمر دينهم !!
إن فقراء النفوس مهما أوتوا من المال فسوف يظنون من خوف الفقر في فقر ، إنهم فقراء في داخلهم فلا يملأ عين ابن آدم إلا التراب !
أما أغنياء النفوس فهم يستغنون بالله عن الناس ، وهذا هو الغنى الحقيقي ، وتلك هى القناعة .. ألا وإن أغنى الناس من استغنى عما في أيدي الناس !

٥ ، ٦ — أما الظالم : الذى ارتضى لنفسه أن يكون ظالماً وتماذى فى ظلمه وتجبره وسوء أعماله ، فإن الليالى كفيلة بتأديبه ولفت نظره وإيقافه عند حده بما تحمله له من مصائب ونوائب لم يعمل لها حساباً ، ولم يفكر وهو يظلم أنها ستحل به يوماً ما .
ولكن الله مع المظلوم حتى يُردَّ إليه حقه !

٧ — ١١ — والأيام فيها العظة والعبرة لكل ظالم :

فكم من ظالم بغى وتكبر وتجبر تيهاً حتى أنه كان يرى النجم أدنى منه منزلة وبينما هو فى غفلته إذا بصروف الدهر ومصائبه تحيط ببيته وتحل عند بابه كما تترك الإبل والجمال فى مباركها ، وفى غمضة عين فقد كل شيء ! فقد المال .. وفقد الجاه والمركز والسلطان ، وخسر دنياه وآخرته وإذا كتاب أعماله مجرد من الحسنات ، فلقى جزاءه العادل ، وصب الله عليه سوط عذاب ! وهكذا يكون جزاء الظالمين !

حُبٌّ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ !

إنَّ الحُبَّ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ لَيْسَ حُبًّا ، إِنَّمَا الحُبُّ مِبَادِلَةٌ وَمِشَارَكَةٌ وَجَدَانِيَّةٌ .
وَمِنَ البَلَاءِ أَنَّ تَحِبَّ إِنْسَانًا وَلَا يَحِبُّكَ ، وَكَلِمَا أَقْبَلْتَ يَصُدُّ عَنْكَ بِوَجْهِهِ ،
وَلَا يَحَاوِلُ أَنْ يِبَادِلَكَ حُبًّا بِحُبٍّ وَمَعَ هَذَا فَأَنْتَ تَلْحُ وَلَا تَعَامَلُهُ بِالْعِثْلِ ، وَلَا تَقِفُ مِنْهُ
مَوْقِفَ الَّذِي يَعْمَلُ بِالحِكْمَةِ القَائِلَةِ :

« زُرْ غَيًّا تُزِدُّ حُبًّا » : أَى لَا تُلْحَ فِي الزِّيَارَةِ وَزُرْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَمَرَّةً بَعْدَ
مَرَّةٍ ، وَدَعِ الإِلْحَاحَ جَانِبًا ! كَيْ تَكُونَ مَحْبُوبًا ، فَإِنَّ البَلَاءَ أَنَّ تَحِبَّ إِنْسَانًا
وَلَا يَحِبُّكَ ..

وَيَا هَا مِنْ تَجَرِبَةٍ مَرِيرَةٍ !!

حَدَّثَ يَاقُوتُ الحَمُويُّ بِإِسْنَادٍ رَفَعَهُ إِلَى ابْنِ عَمْرِو الشَّافِعِيِّ قَالَ : كَانَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ
الشَّافِعِيِّ امْرَأَةٌ تَزُوجُهَا مِنْ قَرِيشٍ بِمَكَّةَ وَكَانَ يَمَازِحُهَا وَيَقُولُ هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ !!

١ - وَمِنَ البَلِيَّةِ أَنْ تَحِبَّ بَّ وَلَا يُحِبُّكَ مَنْ تُحِبُّهُ
٢ - وَيَصُدُّ عَنْكَ بِوَجْهِهِ وَتُلْحُ أَنْتَ ؛ فَلَا تُغْبِئُهُ

اللَّهُ حَسْبِي !

المُؤْمِنُ الَّذِي عَرَفَ رَبَّهُ يَؤَاجِهُهُ بِأَعْدَائِهِ !

فَيَكْفِيهِ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الخُطُوبِ والشَّدَائِدِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ حَسْبَهُ وَكَافِيَهُ !
وَلَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ : حَسْبُنَا اللَّهُ ! .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴿ [آل عمران : ١٧٣ — ١٧٤] .

وفي هذين البيتين يواجه الشافعي كل خطوب الدنيا بتوكله الحق على ربه ، واعتماده عليه ومادام الحب والود قد صح بين العبد وربّه فالكل همّين :

أَنْتَ حَسْبِي وَفِيكَ لِلْقَلْبِ حَسْبُ وَبِحَسْبِي إِنْ صَحَّ لِي فِيكَ حَسْبُ
لَا أَبَالِي مَتَى وَذَاكَ لِي صَحَّ مِنْ الدَّهْرِ مَا تَعَرَّضَ لِي حُطْبُ

وأراك تواجه الشدائد بقولك : الله حسبي ! وبحسبي !

مِيزَانُ التَّفَاضُلِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ

ذات يوم تحركت وفود التهئة من البلاد وعلى رأس كل وفد خطيب .

واسترعى نظر الوالى أن غلاماً صغيراً ترأس وفد قومه ووقف بين يديه خطيباً يقدم له التهئة بالولاية ، فقال له :

أليس هناك من هو أكبر منك ؟

فأجاب الغلام الغرّ :

لو كان الأمر بالسّن لكان هناك من هو أولى بالخلافة منك يا أمير المؤمنين .

وللشافعي بيتان يدوران حول هذا المعنى :

١ — أَرَى الْغِرَّ فِي الدُّنْيَا إِذَا كَانَ فَاضِلاً

تَرَقَّى عَلَى رُءُوسِ الرِّجَالِ وَيَحْطُبُ

٢ — وَإِنْ كَانَ — مِثْلِي — لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ

يُقَاسُ بِطُفْلِ فِي الشَّوَارِعِ يَلْعَبُ

وأراك تقول :

إن التحلى بالأخلاق الفاضلة يجعل الصغير (الغر) كبيراً .
والتخلى عن الفضائل يجعل الكبير صغيراً !

دعوة إلى التنقل والارتحال

لقد أتاح للشافعي جسده النحيل القدرة على السفر والرحلة ، واحتمال مشقة الانتقال بين العراق ومكة واليمن ومصر .

رحلت به أمه من غزة إلى مكة ، ورحل إلى المدينة ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم حمل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة .. وقصد إلى بغداد .. ثم إلى مصر حيث أقام فيها بقية حياته ، وقد أتاح له هذه الرحلة ، وهذا التنقل المتصل خلال هذه المنطقة التي كانت تعد في ذلك الوقت قلب العالم الإسلامي ، فرصة واسعة لدراسة طبائع الناس ، وأخلاقهم ، ومعرفة مصالحهم واتجاهاتهم ، وفهم الحياة ومشاكلها وقضاياها ، فالرحلات مدرسة يتعلم الإنسان منها بالتجربة والمشاهدة أكثر مما يتعلم بالدرس والمطالعة .

تري لو حدثنا الشافعي عن التنقل والارتحال فماذا يقول !؟

- ١ — ما في المقام لذي عقل وذى أدب
من راحة فدع الأوطان واغترِبْ
- ٢ — سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
والصَّبْ فإن لذيذ العيش في النَّصَبْ

- ٣ — إني رأيتُ وقوف الماء يُفسدُه
 إن سَاحَ طابَ وإن لم يَجِرْ لم يَطِبْ
- ٤ — والأسدُ لولا فِراقَ الغابِ ما افترسَتْ
 والسَّهْمُ لولا فِراقَ القوسِ لم يُصِبْ
- ٥ — والشمسُ لو وقَّفتْ في الفلكِ دائمةً
 لَمَلَّها النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
- ٦ — والتَّبرُّ كالترُّبِ مُلقًى في أَمَاكِه
 والعودُ في أرضه نَوْعٌ مِنَ الحَطَبِ
- ٧ — فإن تَعَرَّبَ هذا عَزَّ مَطْلَبُه
 وإن تَعَرَّبَ ذاك عَزَّ كالذَّهَبِ
- [جواهر الأدب ، وأدب الفقهاء]

وقفة مع النص :

هذه أبيات سبعة تدعو إلى فضيلة من الفضائل وهي التنقل والسفر في طلب الرزق والعلم ، وكم يكون جميلاً أن تضعها شركات السياحة في صدر مطبوعاتها ومنشوراتها وأماكن تجمعات روادها ! إنها تدور حول ما في التنقل والسفر من فوائد وتضرب الأمثلة على ذلك من الحياة والواقع .

١ — الإقامة الدائمة والمقام في مكان لا يتحول عنه أمر لا راحة فيه لمن لديه عقل وأدب .. فجدِّد بدوى العقول والآداب أن يدعوا الأوطان ويتغربوا في أرض الله الواسعة !

٢ — وسوف يجد الإنسان عَوْضاً وبديلاً عما يفارقه .. سيلقى أهلاً بأهل ، وإخواناً بإخوان . وسيشعر بسعادة غامرة في تنقله وبصَّبه وتعبه ، فما أجمل الراحة

بعد التعب ، وإن لذيد العيش في النَّصَب . وهكذا علّمنا الدين ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب ﴾ .

٣ — إن نظرة واحدة إلى ما حولنا تعطينا الدليل على صحة ما نقول : انظر إلى الماء . إن أقام في مكانه .. فسد وتغيرت رائحته وأتّن . وإن ساح وسرى وجرى طاب ولذّ طعمه . أليس وقوفه يفسده ؟!

٤ — وانظر إلى الأُسْدُ (جمع) . إن وقفت في عرينها جاعت وماتت . ولكنها إن فارقت الغاب وجدت فريستها فتحيا ولولا فراق الغاب ما افترست وما عاشت ! والسهم لولا انطلاقه ما أصاب !

٥ — وكذلك الشمس لو ظلت في مكانها لكرهها الناس جميعاً من كل ملة ودين سواء في ذلك العرب وغيرهم .

٦ — والذهب قبل أن يُستخرج يظل مُلقًى في أماكنه كالتراب . ويسمونه حينئذ : « تَبْرًا » .

وأعواد الطّيب ذات الرائحة الجميلة طالما ظلت في أرضها فهي لا تزيد عن كونها نوعاً من الحطب .

٧ — وعندما تُثقل أعواد الطّيب (البخور) من أرضها تصبح غالية القيمة ويحدّ الناس في طلبها ويبحثون عنها ويعز مطلبها .

وكذلك إذا استخرج التّبر من التراب يُصبح عزيزاً غالى القيمة . إنه يصبح ذهباً بعد أن كان في الأرض تبراً مختلطاً بالتراب .. وهكذا كل ما ينتقل تغلو قيمته ، ويعلو شأنه كالذهب .

الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ

١ — سأضرب في طول البلاد وعرضها
أنال مُرَادِي أو أموث غريّا

٢ — فإن تلفت نفسك فلله دُرُّها

وإن سلمت كان الرجوع قريبا

وأراك تقرأ هذين البيتين وتقول :

١ — إن الشاعر يقرر أنه قد عزم على الضرب في الأرض والسعى على الرزق وطلب العلم والانتشار في الأرض تلبية لما يقضى به الدين : ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ . فالدين لا يعرف الكسل والحمول والبطالة والتوقف .

إن الضرب في الأرض يجعله بين أمرين :

إما أن يحقق مراده ، أو يموت غريبا !

٢ — فإن مات فما أعظمه من مكافئ ، والله دَرُّه ! لقد سعى ومات في سبيل تحقيق غرض نبيل .

وإن سَلِمَ عاد إلى وطنه محقق الآمال ، وما أقرب الرجوع إليه وما أعلاه !

هيبة الرجال وتوقيرهم

معاملة الناس فن له قواعد وأصول ..

وكل فعل له رد فعل من جنسه .

فمن هاب الرجال تهيبوه .

ومن أهانهم أهانوه .

ومن غربل الناس نخلوه . وما قَضُوا له حَقًّا !

ومن يعصي الرجال كان غير مصيب .

حول هذه المعاني يحدثنا الإمام الشافعى فيقول :

١ — وَمَنْ هَابَ الرَّجَالَ تَهَيَّوْهُ

ومن حَقَرَ الرجال فَلَنْ يُهَابَا

٢ — وَمَا قَصَّتِ الرَّجَالُ لَهُ حَقُوقاً

ومن يَعَصِرُ الرجالَ فما أَصَابَا

[حلية الأولياء]

لقد جرت مناظرة بين الشافعى رضى الله عنه وبين محمد بن الحسن وبشر
الرئيسى فقال الشافعى وقد جرى به مقيداً إلى مجلس هارون الرشيد يرد على بشر هذين
البيتين .

وأراك تقول :

متى تعود لرجالنا هيبتهم ؟

وأقول :

عندما يعامل كل منهم قومه بلين ورفق ..

وعندما يتواضع لهم ..

وعندما يلقاهم بوجه طلق وصدر منشرح ..

وعندما يشركهم فى ماله وفى نعمته ..

إنه إن فعل ذلك اعترفوا له بالسيادة عليهم .

كذب المنجمون

فى عهده — رضى الله عنه — كان هناك من يشتغلون بالتنجيم والإخبار بالمغيبات
عن طريق النظر فى الكواكب .

ولكن لا يعلم الغيب إلا الله فما ينبغي لمؤمن أن يصدق منجماً فقد قالوا :

« كذب المنجمون ولو صدقوا » .

من أجل هذا نرى الإمام الشافعى يحمل صاحبيه رسالة إلى المنجم تتضمن أنه كافر وغير مصدق بما يردده المنجم على لسان الكواكب من إخبار بالمغيبات !
إن الإمام يعلم حقاً وصدقاً أن لهذا الكون مُهَيِّمنا ومسيطرأ عليه يعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ! فأئى للمنجم ذلك !؟

- ١ — حَبْرًا عَنَى الْمُنْجَمَ أَنَّى كَافِرٌ بِالَّذِى قَضَتْهُ الْكَوَاكِبُ
٢ — عَالِمًا أَنَّ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ قَضَاءً مِنَ الْمُهَيِّمِ وَاجِبٌ

معاملة اللئيم

رأى الناس فى مصر عالماً من قریش يجلس فى جامعهم للتعليم ، يصلى فلا يرون أحسن صلاة من صلاته ، ويتحدث فلا يسمعون أعذب حديثاً من حديثه .
وكان لابد أن يغضب « المالكيون » خوفاً على مكانتهم الروحية كما كانوا من قبل !

وأسرف « فتیان بن أبى السمع » الفقيه المالکى فى اللیدد والخصومة فى مناظرته ، ووجه إلى ابن إدريس كلاماً لا یصح أن یقال ، فعلم أمير مصر بالأمر ، فعاقب ابن أبى السمع عقاباً شديداً زاجراً . ولكن تلاميذ « فتیان » أخذوا يطاردون كل من یذهب إلى حلقة الشافعى .. لقد تعرض الشافعى للكثير ، وفى بيتین يكشف لنا عن موقفه ممن كانوا يتطاولون عليه :

- ١ — قُلْ بِمَا شِئْتُ فى مَسَبَّةٍ عِرضى

فَسُكُوتِ عَنِ اللَّئِيمِ جَوَاب !

٢ — ما أنا عادِمُ الجوابِ ولكن

ما ضَرَّ الأسدُ أنْ تُجيبَ الكلابُ

وأراك تقول :

لا جدوى من إجابة اللئيم ، وخير للشرفاء أن يوفروا وقتهم وجهدهم فلا وقت للضياع ، وسوف تظل قافلة العلم في مسيرتها لا يضرها نباح الكلاب .

ت

قافية التاء

دفع الشر

كان الشافعى — رضى الله عنه — « رياضياً » تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها . وقد نقل أسلوب الرياضيين من ميدان الرمى ، إلى حلبة الفقه ، فكان واسع الصدر إزاء معارضيه .

وفي مقطوعة من أربعة أبيات يحدثنا عن الراحة النفسية العميقة التى يجدها فى معاملة أعدائه .

تُرى كيف كان يعاملهم ؟

١ — لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ

أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ

٢ — إِنِّى أَحْيَى عُدُوِّى عِنْدَ رُؤْيَيْهِ

لَأُدْفَعَ الشَّرَّ عَنِ بَالْتِحِيَّاتِ

٣ — وَأُظْهِرُ الْبَشَرَ لِلْإِنْسَانِ أُبْغَضُهُ

كَمَا إِنْ قَدْ حَشَا قَلْبِي مَحَبَّاتِ

الناسُ داءٌ وداءُ الناسِ قُرْبُهُمْ

وفى اعتزالِهِمْ قَطْعُ المَوَدَّاتِ

[أدب الدنيا والدين]

وأراك تقول :

أمر الناس محير !!

قُرْبِهِمْ داء !

واعترالهم عِذاء !

فكيف يكون اللقاء ؟

أقول :

اقرأ أربعة الأبيات تجد ما يريح نفسك من هم العداوات !

هكذا الكرماء !

كان الشافعي — رضى الله عنه — أسخى الناس بما يجد وقلما يمسك الشيء من سماحته !

ويقول الربيع : كان الشافعي إذا سأله إنسان شيئاً يحمار وجهه حياء من السائل ، ويأدر بإعطائه .

إنه يرى في الاعتذار لمن جاء يسأله إحدى المصيبات ! ولكم يتمنى أن يكون تحت يده من المال ما يمنحه أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . ولقد صدق فيه قول القائل :

لو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليثق الله سائله !

إنه يحدثنا عن تجربة يعيشها مع أهل المروءة متحسراً على ما فات .. فتعال إليه :

- ١ — يَاهِفَ نَفْسِي عَلَى مَا لِي أَفَرَّقَهُ
عَلَى الْمُقْلِينَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ
- ٢ — إِنْ اعْتَذَارِي إِلَى مَنْ جَاءَ يَسْأَلُنِي
مَا لَيْسَ عِنْدِي لِمَنْ إِحْدَى الْمَصِيبَاتِ
- [بهجة المجالس وأنس المجالس]

آداب التعلم

تتلذذ الشافعي على يد الإمام مالك ولازمه حتى مات .
ومن قبل خرج عن مكة فلزم هذيلاً في البادية يتعلم كلامها ، ويأخذ طبعها ،
وكانت أفصح العرب ، وبقي فيهم سبع عشرة سنة يرحل يرحلهم وينزل بنزولهم .
و ذات يوم مر به رجل من الزبيريين من بنى عمه فقال له : يا أبا عبد الله ، عزّ
على ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سُدتْ أهل
زمانك ، فقلت : فمن بقى نقصد ؟ فقال لي : مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ .
فذهب إليه وتلقى العلم على يديه ، وهنا يحدثنا عن آداب التعلم وبناء الذات ،
ولا ينبئك مثل خبير :

- ١ — اصْبِرْ عَلَى مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ
فَإِنْ رُسُوبَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِهِ
- ٢ — وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مُرَّ التَّعْلِيمِ سَاعَةً
تَجَرَّعَ ذُلَّ الْجَهْلِ طَوْلَ حَيَاتِهِ
- ٣ — وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتُ شَبَابِهِ
فَكَبُرَ عَلَيْهِ أَرْبَعاً لَوْ فَاتِهِ

٤ - وذات الفتى - والله - بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

الصديق المثالى

ما أكثر الإخوان حين نعدمهم !

ولكنهم فى النائبات قليل !

نعم أهل الثقة قليلون .. بل هم : ... نادرون ..

ولكم يتمنى الشافعى أن يجد الصديق الوفى . وهو على أتم الاستعداد ليقاسمه مال
من الحسنات !

ولكن ماذا يحب الشافعى فى الصديق ؟!

وأى الصفات ينبغى أن تتوافر فيه ؟!

١ - أحب من الإخوان كلُّ مُواتى

وكلُّ غضيب الطَّرف عن عَثراتى

٢ - يوافقنى فى كلِّ أمرٍ أريده

ويحفظُنى حياً وبعد مماتى

٣ - فمن لى بهذا ؟ لَيْتَ أُنَى أَصَبْتُهُ

لقاسمته مالى من الحسنات

٤ - تصفحتُ إخوانى فكان أقلُّهم

- على كثرة الإخوان - أهلُ ثقاقى

[أدب الدنيا والدين ، وأدب الفقهاء]

وأراك تقول :

نعم .. الصديق الحق من تتفق أخلاقه مع أخلاقى ، ويفض الطرف عن عثراتى ،
ويحفظنى حياً وميتاً .

ولكننى لا أطلب منه أن يوافقنى فى كل أمر أريده ، فربما كنت مخطئاً وعليه أن
يردنى إلى الصواب !

أشحة على الخير

هناك صنف من الناس كانوا صامتين لا يسمع لهم صوت فلما ملكوا الدراهم
نطقوا ، وصدق القائل : « ففى اللسان لمن أراد فصاحة » .

ترى هل أصبح لهذا الصنف دور فى مجتمعهم فعطفوا على من يستحقون الفضل ،
وأسهموا فى عمل الخير ، وخير العمل ؟!

حدثنا عبد الله الأصفهاني ، حدثنا أبو نصر قال : سمعت أبا عبد الله ابن أخى
وهب يقول :

سمعت الشافعى يقول :

وَأَنْطَقَتِ الدَّارَهُمْ بَعْدَ صَمْتٍ أَنْاساً بَعْدَمَا كَانُوا سُكُوتاً
فَمَا عَظَفُوا عَلَى أَحَدٍ بِفَضْلِ وَلَا عَرَفُوا لِمَكْرَمَةٍ ثُبُوءاً

[حلية الأولياء]

وأراك تقول :

لقد جاء فى الأثر : « بُعِثَ لِأَنْعَمِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ » ، والمكارم جمع نكرمة ،
والمكرمة فعل الخير .. فهل يستحق أولئك ما أنعم الله عليهم به من دراهم ؟
وما قيمة المال إذا لم ينتفع به صاحبه وينفع الناس ؟ فهل هؤلاء الأشحاء مسلمون
حقاً ؟

مَحَطَّ الرَّجَاءِ

من أولئك الذين نعلق عليهم الآمال ؟

لاشك أنهم الكرماء ؛ فهم الذين يقصدهم طلاب الخير ، ويروم الناس المكارم عندهم !

وأكرمهم عند الشافعي من بنى لله بيتاً ..

وهو في نظر الشافعي كالأسد يحمي المال والعرض والتراث والأرض ، ولقد كانت بيوت الله معاهد للعلم وطلابه وعلمائه ، توقف عليها الأموال ، وتجرى على طلابها الأرزاق ، فتواها دائم ، وأجرها لا ينقطع في الحياة وبعد الممات .

يقول الإمام الشافعي :

إِذَا رُمَتْ الْمَكَارِمُ مِنْ كَرِيمٍ	فَيَمَّمْ مَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتاً
فَذَاكَ اللَّيْثُ مِنْ يَحْمِي حِمَاهُ	وَيُكْرِمُ ضَيْفَهُ حَيّاً وَمَيِّتاً

ويقول أهل اللغة :

رام الشيء : قصده وطلبه . يَمَّم : اقصد واتجه .

المكارم : الجوانب الخيرة الحمودة جمع مَكْرَمَة .

الليث : الأسد .

الحمى : ما يجب على الإنسان حمايته من مال وعرض وأرض .

الصفح الجميل

الصفح أبْلَغ من العفو ، وأعلى منه درجة ؛ فقد يعفو الإنسان ، ولا يصفح ، وإذا

وُصف بالجمال في القرآن — الصفح الجميل — صار أبلغ عفواً .

وفي مجال التجاوز عن الذنب ، والإعراض عن الجاهلين نجد إمامنا الشافعي يعطينا
المثل فيقول :

- ١ — من نال مِنِّي ، أو علقت بِذِمَّتِهِ
أَبْرَأْتَهُ لِلَّهِ شَاكِرَ مَنَّتِهِ
- ٢ — أَرَى مُعَوَّقَ مُؤْمِنٍ يَوْمَ الْجَزَاءِ
أَوْ أَنْ أَسُوءَ مُحَمَّدًا فِي أُمَتِهِ !؟

[شذرات الذهب]

اللفظة :

نال مِنِّي : سَبَّني ووقع في عِرْضِي — أBRَأْتَهُ : سَاحْتَهُ وصفح عنه .
الْمِنَّة : الإحسان والنعم وجمعها مِئْن — مُعَوَّق : مانع وعائق .

وقفه مع النص :

لقد وَضَّح الشافعي موقفه ممن ينالون منه ، أو يعلق بذمتهم أمر من أموره .. إنه
يصفح عنهم ، ويرى ذمتهم مما له عندهم راضى النفس شاكرًا لله الذي أتاح له
ذلك .

ويعود فيكشف لنا عن دوافع ذلك الصفح والإبراء .. إنه إذا لم يصفح عنه حال
ذلك دون دخوله الجنة وهو واحد من أمة محمد ﷺ وذلك يسوء النبي ﷺ الذي
يرجو لأمته أن تكون جميعاً في الجنة .

إن الشافعي يتساءل في إنكار ونفى :

أَرَى مُعَوَّقَ مُؤْمِنٍ يَوْمَ الْجَزَاءِ !؟

إن هذا مما لا أرضاه لنفسى !!

أأسوء محمداً في أمته ؟!

وهذا ما لا أرضاه لنفسى ، ولا لغيرى ! ومن أجل هذا أعلنت في الناس مسلكنى وموقفى ووجهة نظرى !
فيا لقلبه الكبير الذى اتسع للكثير !

متى يكون السكوت من ذهب ؟!

الناس صنفان : عقلاء ، وسفهاء ..

والحياة تخلو مع العقلاء ، يسودها المنطق ، وترفرر عليها سعادة حسن اللقاء .
أما السفهاء فإن الطيش يملكهم ، والجهل يسيطر عليهم ، ويود أحدهم لو يستدرجك لينال منك !

فحذار أن تعطيه الفرصة ، وأغلق في وجهه باب التفاهم ؛ فإنك إن كلمته أعطيته الفرصة للنيل منك وفرجت عنه ، وعندئذ لا تلومن إلا نفسك !

دع الكمد والغيط يحرقان قلبه فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله !

وليكن شعارك مع السفهاء : ﴿ قُلْ مُؤْتُوا بَعْظَكُمْ ﴾ .

وهاهى ذى تجربة الإمام الشافعى صاغها في بيتين :

- ١ - إذا نطق السفیه فلا تُجبه فحیر من إجابته السكوت
- ٢ - فإن كلمته فرجت عنه وإن خلّيته كمداً يموت

قُضَاةُ الدَّهْرِ !

في الحديث الشريف الذى أخرجه البيهقى من حديث بُرَيْدَة :

القضاة ثلاثة :

« قاض قضي بغير الحق وهو يعلم فذاك في النار . وقاض قضي وهو لا يعلم ، فأهلك حقوق الناس ، فذاك في النار .

وقاض قضي بالحق ، فذاك في الجنة » .

فالقضاء مهمة صعبة ، وياويل من يضل !

إنه يبيع دينه بدنياه ، فما ربحت تجارته !

والشافعي يحدثنا عن أولئك الضالين فيقول :

- ١ - قُضَاةُ الدَّهْرِ قَدْ ضَلُّوا فَقَدْ بَاثَ خَسَارَتُهُمْ
٢ - قَبَاعُوا الدِّينَ بِالْأَدْيَا فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ

ج

قافية الجيم

المُخْرَجُ مِنَ النَّوَازِل !!

ما أكثر الشدائد التي تنزل بنا ، والمصائب التي تحل علينا والعقبات والعوائق التي تعترض طريقنا ، والمعضلات والصعاب التي تواجهنا ، ونحار في حلها واجتيازها !
وتعمى أبصارنا ، وتضيق الدنيا في أعيننا ، ونذوب أسى وحسرة وكمداً ، ويدب اليأس إلى نفوسنا !! دون أن نتجه إلى الله فهو وحده مُفَرِّجُ الكروب ، فما اشتدت أزمة إلا وكان المخرج منها عنده !!

والإمام الشافعي يذكر تجربته في هذا المجال :

- ١ - وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى
ذَرْعاً وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
- ٢ - ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا
فُرجَتْ وَكُنْتُ أَظْنُهَا لَا تُفْرَجُ
-

اللفظة :

النازلة : المصيبة الشديدة .
الذَّرع : الطاقة والوسع . وضاق بها ذرعا : لم يقدر على تحملها .
استحكمت حَلَقَاتُهَا : قويت كحلقات الدرع ، والحلقات جمع حلقة بسكون اللام . والمراد أنها نازلة شديدة .

عداوة الشعراء !!

وهذه أبيات ثمانية ذكرها ابن خلكان في ترجمته للشافعي في كتابه « وفيات الأعيان » وقال : « ومن المنسوب إليه » .
ولكن محمد فريد وجدى صاحب دائرة معارف القرن العشرين أوردتها قائلاً :
« ومن شعره » .

ومع هذا فإن السمعاني أنشدها في « المذيل » لشاعر ورد على صاحب بن عباد فلم ير منه برأ ، فكتبها إليه فجاءه ، واعتذر إليه وبرّه .
إن ما ذكره السمعاني يلائم ماتضمنته الأبيات الثمانية ، فلعل الشافعي كان يرددها !

أليس هو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يُزرى كنت اليوم أشعر من لبيد !

وإليك الأبيات التي قال ابن خلكان أنها نسبت إليه .

ماذا أقول ؟

- ١ — ماذا يُخبرُ ضيفُ بيتك أهله
إن سئل كيف معاذه ومعاجه
- ٢ — أيقول : جاوزت الفرات ولم أنل
ربياً لديه وقد طغت أمواجه
- ٣ — ورقيتُ في درج الغلا فتضايقت
عما أريد شعابه وفجأجه
- ٤ — ولتُخبرن خصاصتي بتملّقي
والماء يُخبرُ عن قذاه زُجأجه

حال الشاعر :

- | | |
|---------------------------|----------------------------|
| عندى يواقيث القريض ودُّره | وعلى إكيل الكلام وتاجه |
| تربى على روض الربا أزهاره | ويرف في نادى الندى ديباجه |
| والشاعر المنطيق أسود سألخ | والشعر منه لعابه ومجأجه |
| وعداوة الشعراء داء مُعضل | ولقد يهون على الكريم علاجه |

وقفة مع النص :

- ١ — تبدأ الأبيات بتساؤل حول عودة الشاعر من زيارة ذلك الكريم دون أن يرى منه براً ونوالاً وعطاء .
- إنه يقول له : ماذا يقول العائد من ضيافتك إلى أهله صفر اليدين إن سألوه كيف كان ذاك اللقاء ؟
- ٢ — أيقول بلغت النهر الزاخر وعدت وأنا عطشان .

٣ — أم يقول : ارتقيت إلى صاحب المعالي فضاقت الدنيا في عيني ، وسُدت السُّبُل !؟

٤ — ثم يعود فيقول :

إن حاجتي وسوء حالي لخير دليل على فقرى واحتياجى يبدو ذلك واضحاً كما يبدو قذى الماء وشوائبه من وراء آنيته الزجاجية .

٥ — ثم يعزى نفسه بما عنده مهدداً ذاك الكريم بما يجلبه على نفسه من عداوة الشعراء وعدم وصلهم ! فيقول :

٦ — عندي جواهر ودرر .. وعلى إكليل الكلام وتاجه .. مما يزيد جمالاً عن روض الرُّبا وأزهاره ، ورقة ديباجه .

٧ — وإلى جانب هذا فالشاعر المقتدر ثعبان أسود شرس ينفث سُمّاً . وعلى ذلك ..

٨ — فعداوة الشعراء داء معضل يصعب شفاؤه .. على غير الكريم ، فإن ذلك مما يهوى عليه .

اللغويات :

سِيل : سؤل . ونقول : سَلَّ عما بدا لك .

معاده : عوده ورجوعه .

معاجه : المكان الذى يُعاج إليه ويُقام به . وعاج : رجع .

رِيّاً : لم أرثو من عَطَشى . رقيت : صعدت .

الشَّعَاب : جمع شِعْب : الطريق الضيق . والفِجَاج : جمع فج : الطريق الواسع .

الخصاصة : الجوع ، والتملق : الفقر ، والقذى : الشوائب والأوساخ .

القريض : الشعر ، اليواقيت : أحجار كريمة ، والإكليل : عصابة توضع على

الرأس مزينة بالأحجار .

ترى : تزيد . والرُّبا : الأماكن العالية حيث يكون زرعها وزهرها أكثر جمالاً

وتألقاً .

المنطيق : الفصيح البليغ . الساخ : الذى خرج من جلده وهو شرس .
الحجاج : ما يخرج من الفم . والمعضل : ما يصعب شفاؤه .

قافية الحاء

ح

عندما يكون السكوت من ذهب

يبدو أن الفقهاء كانوا يتعرضون لكثير من الجدل والخصام من مخالفيهم فى رأى .
وفى التحدى فى الجدل والخصام فتح أبواب الشر .. وقد تعرض إمامنا لألوان من
الجدال والخصام ! . مع أن مبادئنا الإسلامية تقول لنا :

بارك الله فيمن كان مفتاحاً للخير مغلقاً للشر !

ويكشف الإمام الشافعى عن موقفه من خصميه فيقول :

١ - قالوا سَكَتَ - وقد حُوصِمْتَ - ؟ قلت لهم :

إِنَّ الْجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ

٢ - والصمت عن جاهل أو أحمق شَرَفٌ

وفيه أيضاً لَصَوْنُ الْعِرْضِ إِصْلَاحُ

٣ - أَمَا تَرَى الْأَسَدَ يُخْشَى وَهِيَ صَامِتَةٌ ؟!

وَالْكَلْبَ يُخْشَى - لِعَمْرَى - وَهُوَ تَبَاحُ

وقفة مع النص :

اللغة :

أحمق : قلّ عقله وساء فعله ، ولا تنون إلا في الشعر .

يخسى : يزجر ويرمى بالحجارة ويطرد ويقال له : إخساً .

لعمري : قسم .

إنه — رضى الله عنه — يرد على من يعيرون عليه سكوته وعدم رده على الأحمق فيقول :

إننى حين أجيبه فقد فتحت باباً للشر ولا بارك الله فيمن كان مفتاحاً للشر .
هذا والصمت عن الجاهل والأحمق شرف ، وأى شرف ، وفيه صيانة للعرض من تطاول الجاهل والأحمق .

إن الأسود صامته في عرينها ومع ذلك فلها هيبة وخشية .

أما الكلاب فما أكثر نباها ومع ذلك فالناس يزجرونها ويطردونها ، ولهذا كان صمتى عنهم خيراً من الرد عليهم .

فياك والتمادى في محاسبة الأحمق والجاهل !!

فراصة الفقيه !

هى فتوى روعى فيها حال السائل ، وأجيب عن سؤاله بما يلائم وضعه .
نجد السؤال في بيت أنشده السائل ، ونجد الإجابة في بيت مماثل للبيت الأول وزناً وقافية .

حدث الربيع بن سليمان قال :

كنا عند الشافعى إذ جاءه رجل برقعة ، فنظر فيها وتبسم ، ثم كتب فيها ودفعها إليه .

قال : فقلنا :

يُسأل الشافعي عن مسألة لا ننظر فيها وفي جوابها ؟! فلحقنا الرجل ، أخذنا الرقعة ، فقرأناها ، وإذا فيها :

سَلِ الْمَفْتَى الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوِيرٍ وَضَمَّةٍ مُشْتَاكِ الْفَوَادِ جُنَاحٍ ؟!

قال : وإذا إجابة أسفل من ذلك :

أَقُولُ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَ جِرَاحُ !!

قال الريع : فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحديث بمثل هذا !!

فقلت : يا أبا عبد الله ، تُفتي بمثل هذا شاباً ؟!

فقال لي : يا أبا محمد ، هذا رجل هاشمي قد عَرَسَ هذا الشهر — يعني شهر رمضان — وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح أن يُقْبَلَ أو يَضُمَّ من غير وطء ؟! فأفتيته بهذه الفتيا !!

قال الريع : فتبع الشاب ، فسألته عن حاله ، فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي .

فما رأيت فِرَاسَةً أَحْسَنَ مِنْهَا !!

[معجم الأدباء]

ويقول ابن القيم في روضة المحبين — وأما ما ذكره السمعاني عن الشافعي — رحمه الله تعالى — فمن تحريف الناقل . والسائل لم يذكر لفظ الشافعي ، والبيتان هكذا هما :

سَأَلْتُ الْفَتَى الْمَكِّيَّ فِي تَزَاوِيرٍ وَنَظَرَةٍ مُشْتَاكِ الْفَوَادِ جُنَاحٍ ؟!

فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَ جِرَاحُ !!

فهذا السائل هو الذي ذكر السؤال والجواب ، وهو مجهول لا يعرف هل هو ثقة أم لا ؟ .

ثم إنه نهى أن يُذهب التقى تلاصقُ الأكباد فكأنه قال : لا تلاصق هذه الأكباد
لئلا يذهب تلاصقها التقى .

ويمكن أن يكون غير مذهب للتقى في عشق مباح بل مستحب كعشق الزوجة .

الفقيه والصوفي

الناس في رأى الشافعى ثلاثة :

فقيه فقط ، وصوفى فقط ، وفقيه صوفى .

وهو ينصح للفقيه أن يكون صوفياً ، وقد أبان عن وجهة نظره !

ترى لماذا ؟ تعالى نقرأ ما قال :

١ - فقيهاً وصوفياً فكن ليس واحداً

فإنى - وحق الله - إياك أنصح

٢ - فذلك قاسر لم يدق قلبه تقى

وهذا جهول ، كيف ذو الجهل يصلح ؟!

د

قافية الدال

مِحنُ الزَّمانِ ومِسرَّاته

ليت شعرى هذه الدنيا لمن ؟!

كل من تلقاه يشكو دهره

والحق أن شدائد الزمان وأحداثه لا تكاد تنقضى ففى كل يوم تضالعنا أخبار الحروب والزلازل والعدوان على الأمنين الأبرياء ، إلى جانب المشكلات اليومية التى تطارد الشعوب وتلاحقهم فلا يشعرون بسعادة ولا تنها لهم حياة ، يثنون تحت وطأتها ، ويلهثون أمام مطاردتها هم .

إن محن الزمان كثيرة لاتنقضى ، بينما السرور كالأعياد أيامه معدودة . لقد تحكم الزمان فى الأكابر فأذهم بينما يمشى على هوى الساقطين الأدنياء وذاك حال الدنيا الدنية .

إنه يقول :

مَحْنُ الزَّمانِ كَثِيرَةٌ لَا تُنْقَضِي وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كالأَعْيَادِ
مَلِكُ الأكابرِ فَاسْتَرَقَّ رِقَابَهُم وَتَرَاهُ رَقًّا فِي يَدِ الأَوْغَادِ

ونعود فنتساءل :

- ١ — كيف يرى الشافعى الزمان فى محنه وسروره ؟
- ٢ — وما رأيك فيما يراه ؟
- ٣ — ما موقف الزمان من الأكابر والأصاغر ؟
- ٤ — وعلام يدل ذلك ؟
- ٥ — الوغد : الأحمق الذى الرَّذُلُ فما جمعه ؟ ابحث فى قاموسك تجد له ثلاثة جموع .
- ٦ — يقال رق رقًا صار رقيقا أو دخل فى الرِّق وأصبح عبدًا . فما المراد بقوله تراه رقًا فى يد الأوغاد ؟

قالوا تُرْفَضَتْ ..!!

الإمام الشافعى هاشمى النسب فلا عجب إذا أحب عليًّا وآل بيت النبى ﷺ

وتشيع لهم .

ولقد وجد أعداؤه الفرصة سانحة ليرموه بالرفض .. ولكن شتان ما بينه وبين
الرافضة !

فصحيح أن الرافضة فرقة من الشيعة لكنها : تجيز الطعن في الصحابة ، وسُمّوا
بذلك ؛ لأن أوليهم رفضوا زيد بن علي حين نهاهم عن الطعن في الشيخين !! .
والشافعي ليس كذلك ، فليس كل من تشيع رافضياً !!

وفي أبيات ثلاثة يناقش الشافعي أولئك الذين تقولوا عليه ويرد عليهم :

١ — قالوا : تَرَفُّضْتُ قُلْتُ : كَلَّا

ما الرِّفْضُ دِينِي وَلَا اعْتِقَادِي

٢ — لَكِنْ تَوَلَّيْتُ — غَيْرَ شَكٍّ —

خَيْرَ إِمَامٍ وَخَيْرَ هَادِي

٣ — إِنْ كَانَ حُبُّ الْوَلِيِّ رَفْضًا

فَبِإِنِّ رَفَضِي إِلَى الْعِبَادِ

وقفة مع النص :

إن الترفض : اتخاذ مذهب الرافضة واعتناقه .

ونرى الشافعي يرد عن نفسه هذه التهمة قائلاً :

ما الرِّفْضُ دِينِي وَلَا اعْتِقَادِي .

ويقال : توليت فلاناً : أحبيته !!

ولا شيء في هذا فقي الحديث الشريف :

« من كنت مولاه فعليُّ مولاه » .

والمؤمن وليّ الله فهل حب الوليّ يُعد رفضاً ؟!
إن كان حُبّ الوليّ رفضاً .. فإن رفضي إلى العباد .
ولا غلّي إذا أعلنت حُبّي لعلّي !

الناسُ والكلابُ

قديماً قال شاعرنا العربي :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسانٌ فكِدْتُ أَطِيرُ

وتمر القرون ويسوء حال الناس ، فيتمنى الشافعي أن تكون الكلاب له مجاورة فلا
يرى من الناس أحداً !!
تُرى لماذا ؟

حدثنا محمد بن إبراهيم قال :

حدث شعيب بن محمد الديلمي قال :

أنشدنا الشافعي :

- ١ — ليت الكلاب لنا كانت مجاورةً
وأنا لا نرى مما نرى أحداً
- ٢ — إن الكلاب لتهدى في مواطنها
والخلق ليس بهادٍ ، شرهم أبداً
- ٣ — فاهرب بنفسك واستأنس بوحدها
تبقى سعيداً إذا ما كُنت منفرداً

[حلية الأولياء]

وقفه مع النص :

نجد هذا النص في حلية الأولياء ١٤٩/٩ وتختلف رواية الربيع في كلمات ثلاث :
في الشطر الثاني من البيت الأول : وأنا بدل ولتتنا . وقد آثرنا هذه الرواية لعدم التكرار .

وفي الشطر الأول من البيت الثاني : مرابعها بدلاً من مواطنها .

وفي البيت الثالث في الشطر الأول : فانج بدل فاهرب .

ونعود فنتساءل :

لماذا الكلاب ؟

ويجب الشافعي :

إن الكلاب لتهدي في مواطنها . تكون هادئة وتكف شرها . ومن هنا قالوا :
فلان جبان الكلب .

والخلق ليس بهادٍ .. شرهم أبدا . شرهم مستمر لا تهدأ لهم نار . وقديماً أخرج
حاتم الطائي كلبه من داخل بيته إلى خارجه ليهدي ذاك الذي طلب النجدة لسمع
صوته ويرى ناره فيقبل على مصدر الصوت والنار فيتهدي !
وأخرجت كلبى وهو في البيت داخله .

لقد أخرج كلبه لينبح ؛ لعل هذا السارى يتهدي بنباحه !
وخير لمن كان ذا خلق في مثل هؤلاء الناس أن يهرب بنفسه وينجو من شرهم
ليعيش سعيداً في وحدته !

عدوّ يتمنى الموت للشافعيّ

معرفة المناسبة التي قيل فيها الشعر تساعد على فهمه .

وقد قال ابن عبد الحكم :

سمعت أشهب يدعو على الشافعى ، فذكر ذلك للشافعى فقال هذه الأبيات الثلاثة :

وأشهب فقيه مالكى مصرى وُلِدَ فى السنة التى وُلِدَ فيها الشافعى ، واشتهر بعدائه له ، ومات بعده بثمانية عشر يوماً .

١ — تمنى رجال أن أموت وإن أمث

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

٢ — وما موث من قد مات قبلى بضائر

ولا عيش من قد عاش بعدى بمُخلد

٣ — لعل الذى يرجو فنانى ويدعى

به قبل موتى أن يكون هو الردى

[حلية الأولياء]

وقفه مع النص :

حكى الشافعى أمنية أعدائه ، والموت سبيل كل حى ، فإذا تحققت أمنيتهم ، فليس هو وحده الذى يموت ، ولا شئ فى هذا .

وسيان : أن يموت أحدهم قبل أو يعيش بعدى ، فلن يضُرَّ من مات موته ، كما أن من عاش لن يمنحه عيشه الخلود والبقاء !

ثم يقول : ومن يدرى فلعل الذى يتمنى موتى وهلاكى وفنانى ويدعو علىّ بذلك أن يكون هو الذى يردى ويهلك قبلى ، فالحياة والموت بيد الله .

ونعود نتساءل :

بم رد الشافعى على من تمنى موته ؟

وهل ينبغي للمؤمن أن يتمنى موت أخيه ؟

الناسُ بين شامتٍ وحاسدٍ

عند الشدائد تظهر الإخوان !

ويعرف العدو من الصديق ، وقد قال أحدهم :

جزى الله الشدائد كلَّ خيرٍ عرفت بها عدوِّي من صديقي !

ومن يمرون بشدائد يفتقدون الصديق الحق .. « أختة » .

ولهذا نرى الشافعي يحدثنا عن تجربته في مجال الصداقة في رخاء وشدة ؛ فيقول :

١ - وَلَمَّا أَتَيْتُ أَطْلُبُ عَنْدهُمْ

أخا ثِقَةٍ عِنْدَ ابْتِلَاءِ الشَّدَائِدِ

٢ - ثَقَلْتُ فِي دَهْرِي رَحَاءً وَشِدَّةً

وَنَادَيْتُ فِي الْأَحْيَاءِ هَلْ مِنْ مُسَاعِدٍ ؟

٣ - فَلَمْ أَرِ فِيمَا سَاءَ فِي غَيْرِ شَامِتٍ

وَلَمْ أَرِ فِيمَا سَرَّني غَيْرَ حَاسِدٍ

وقفه مع النص :

لقد جاء يبحث عن أخ في الشدائد عندما تعرض للابتلاء والاختبار ، وتتابعت عليه الحزن ، وراح ينادى : هل من مساعد ؟

مساعد يقف إلى جانبه ، يسليه ويعزيه ويواسيه ، ويحمل عنه مائء بحمله ، ويسانده حتى تمر التجربة بسلام ويخرج منها كالذهب الإبريز نقياً صافياً .

ولكن .. وآه مما بعد لكن !!

لكن تبين له ما يأتي :

لم ير في أوقات الشدة غير شامت فرح بما ناله ، وسعيد بما أصابه !
ولم ير في أوقات السرور غير حاسد يتمنى زوال نعمته ، ويود لو انقلب سروره
حزناً وسعاده شقاء ، ورضاه غضبا ، وصحته ضعفاً ومرضاً ، وحياته موتاً .
وهكذا في الرخاء والشدة لم يجد أحبا ثقة يثق به ويشاركه ويشاطره ، ويفضى إليه
بما في نفسه !!

وأعود فأقول :

١ — مارأيك في ناس زماننا ؟ وهل هم أيضاً في الشدائد والمسررات بين شامت
وحاسد ؟

٢ — وكيف ينصلح حالهم ، وتقوى رابطتهم ؟!

من صور غدر الأخلاء !!

الحُلَّة : الصداقة الخالصة التي تتخلل القلب ، وجمعها : خِلال .

والخليل : الصديق المخلص الذي تخللت صداقته القلب ، والحبیب الذي أصفى
المودة وأصحَّها ، وجمعه : أخلاء .

وفي أبيات أربعة يعرض علينا الإمام الشافعي صورة من صور غدر الأخلاء في
مجتمعه .

لقد صحب الشافعي ما لا عدد له من الناس ، وكان يحسب أنه قد ملأ يديه من
صدقهم وإخلاصهم وصفاء صداقتهم ، لكنه لما ابتلاهم واختبرهم وجدهم نماذج
للغدر لا يُبقون على أحد ، ولا يعرفون للصداقة حقها !

إن غاب فَشَرَّ الناس يشتمه !

وإن مرض فخيرهم لا يعود في مرضه ولا يسأل عنه !

وإن رأوه بخير ساءهم ما هو فيه من فرح !

وإن رأوه بشر ساءهم ما هو فيه من نكد وحزن !

أهؤلاء هم الأخلاء ؟

وهل الناس هم الناس في كل عصر ؟

وهل هناك بارقة أمل في صحبة ترعى حق الأخوة ؟

وأين الأخوة في الله ؟! فما كان لله دام واتصل !!

تعال نعايش الشافعي في أبياته :

١ - إلى صَحْبِ النَّاسِ مَا لَهُمْ عَدُوٌّ

وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ يَدِي

٢ - لَمَّا بَلَوْتُ أَخِيَّ وَجَدْتُهُمْ

كَالدَّهْرِ فِي الْقَدْرِ لَمْ يُقُوا عَلَى أَحَدٍ

٣ - إِنْ غِبْتُ عَنْهُمْ فَشَرَّ النَّاسِ يَشْتُمُنِي

وَإِنْ مَرَضْتُ فَخَيْرُ النَّاسِ لَمْ يُعِدْ

٤ - وَإِنْ رَأَوْنِي بِخَيْرٍ سَاءَهُمْ فَرَحِي

وَإِنْ رَأَوْنِي بِشَرٍّ سَرَّهُمْ نَكْدِي !!

عجباً لمن يضحك والموت يطلبه !!

ذكر ابن رشيقي القيرواني محمد بن إدريس قائلاً :

وأما محمد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن الناس افتنائاً في الشعر وهو

- القائل : ومُتَعِبِ الْعِيسِ مُرْتاحًا إِلَى بَلَدِ
وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ
- ٢ - وضاحكٍ والمنايا فوق مَفْرِقِهِ
لو كان يعلم غيباً مات مِنْ كَمَدِ
- ٣ - مَنْ كان لم يُؤْتِ عِلْماً في بقاءِ غَدِ
ماذا تَفَكَّرُهُ في رِزْقِ بَعْدِ غَدِ؟!

ولكن الديوان المجموع تضمن البيتين الأخيرين مع اختلاف يسير .
إنه يقول :

- ١ - كم ضاحكٍ والمنايا فوق هَامَتِهِ
لو كَانَ يَعْلَمُ غَيْباً مات مِنْ كَمَدِ
- ٢ - من كان لم يُؤْتِ عِلْماً في بقاءِ غَدِ
ماذا تَفَكَّرُهُ في رِزْقِ بَعْدِ غَدِ

[العمدة في محاسن الشجر]

وقفة مع النص :

كثيراً ما كان الشافعي يفكر في الموت ويعمل لما بعده ، ولهذا نراه يعجب من أمر أولئك الذين يتكالبون على الحياة الفانية وينسون الباقية . يعجب لمن يجهد العيس (الجمال) ويتعبها وهو مرتاح للوصول إلى ما يبتغيه في بلد يطلبه فيها الموت .. إنه يضحك والمنايا (الموت) فوق رأسه وهامته ومفرق شعره فأين منه المهرب ؟!

لو كان يعلم كل منا نهايته لمات حزناً وكمداً ، لكن لا يعلم الغيب إلا الله ، وجدير بمن لا يعرف ماذا يحدث في الغد ؟ أيبقى أم ينتهى ؟ أن يكف عن التفكير في رزق ما بعد غد !

لا تيأسن من لطف ربك !!

يسوق الشافعي أربعة آيات لمن يعانون ويثنون تحت وطأة ذنوبهم ويخافون يوم
الفرع الأكبر .

إن عفو الله في انتظارهم وكيف لا وقد أفاض عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة ؟
لقد غمر الإنسان بعطفه منذ كان نطفة ضمتها أحشاء أمه وظلت العناية ترعاه حتى كان
وليداً ! فهل يتخلى عنه ربه ويدعه يدخل النار ؟

لو شاء ما ألهمه التوحيد منذ ولد !

فإلى الذين تجلدهم ذنوبهم وتورق عليهم حياتهم : لا تيأسوا من لطف الله !

١ - **إِنْ كُنْتَ تُعَذِّبُ فِي الذُّنُوبِ جَلِيداً**

وَتُخَافُ فِي يَوْمِ الْمَعَادِ وَعِيداً

٢ - **فَلَقَدْ أَتَاكَ مِنَ الْمُهَيِّمِينَ عَفْوَهُ**

وَأَفَاضَ مِنْ نِعَمٍ عَلَيْكَ مَزِيداً

٣ - **لَا تَيَاسُنْ مِنْ لُطْفِ رَبِّكَ فِي الْحَشَا**

فِي بَطْنِ أُمِّكَ مُضَعَّةً وَوَلِيداً

٤ - **لَوْ شَاءَ أَنْ تُصَلِّيَ جَهَنَّمَ خَالِداً**

مَا كَانَ اللَّهُمَّ قَلْبُكَ التَّوْحِيداً

وقفه مع النص :

تذكر يامن أثقلتك الذنوب أن الله الذي تفضل عليك بادی ذی بدء فألهم قلبك
التوحيد لن يتخلى عنك ويذكرك تصلى ناراً حامية .. فعد إليه نادماً مستغفراً فهو
اللطيف بعباده .. هيا قل : إني ذاهب ربي !!

هُمُومُ الْغَدِ !!

التسليم لله هو لبّ الإيمان ، ومادامنا نعمل ونتوكل فلتكن إرادة الله ومشيتته !
ومن يكن قلبه عامراً بالإيمان فلن تطارده هموم الغد ، فإن غداً له رزق جديد .
ومادام الله قد أنعم عليه بقوت يومه فليُسعد وليُنعِم وليرض وليُسَلِّم ، وليترك ما يريد
إلى ما يريد الله ! فهو الرزاق ذو القوة المتين !

إن هذا هو التفويض .. وهذا هو التسليم وهذه هي الثقة بالله ، مع حسن الظن به
وجميل التوكل عليه . ولن يجوع أو يعرى من أحسن الظن به !

١ - إِذَا أَصْبَحْتُ عِنْدِي قُوَّةٌ يَوْمِي

فَحَلَّ الِهِمُّ عَنِّي يَا سَعِيدُ

٢ - وَلَا تُحْطِرْ هُمُومَ غَدٍ بِأَلِي

فَإِنَّ غَدًا لَهُ رِزْقٌ جَدِيدُ

٣ - أَسَلِّمُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا

فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا مَا يُرِيدُ

وقفة مع النص :

وفي عصرنا الذي تكاثرت فيه الهموم ، وفي كل يوم ترد أنباء عن قتلى الجفاف ،
وهلاك البشرية بفعل الجوع .. نجد أننا في أمس الحاجة إلى التسليم والأمل في الله !

لَوْلَا ... وَلَوْلَا

منح الله كلاً منا قدرات وإمكانات يجب أن يستثمرها فيما يعود على بني جنسه
بالخير !

وفي بعض النفوس طموح وتطلع ، وحب استعلاء على الناس !
وكأنى بالإمام الشافعى يوجهنا في رفق إلى ما ينبغى أن يمارسه المؤمن من قدرات ،
وما ينبغى أن تكون عليه العلاقات ، وإذا كان القلب عامراً بالخشية من الله ، ففيها
ترويض للنفس وكبح جماح تطلعاتها ! إنه يقول :

- ١ - وَلَوْلَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرَى
لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ
- ٢ - وَأَشْجَعُ فِي الْوَغَى مِنْ كُلِّ لَيْثٍ
وَأَلْ مُهَلَّبٍ وَبَنَى يَزِيدٍ
- ٣ - وَلَوْلَا خَشْيَةُ الرَّحْمَنِ رَبِّي
حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيْدِي
- [وفيات الأعيان]

وقفة مع النص :

- ١ - يزرى : يعيب وينقص من قدرهم فهم يخوضون مع الخائضين .
وليد من شعراء الجاهلية ، تنسك حين أسلم ولم يسمع له في الإسلام غير بيت
واحد هو :
- ما عاتب الحرّ الكريم نفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح
- ٢ - الوغى : الحرب ، والليث : الأسد .
- ٣ - والعبيد : الأرقاء والخدم .

الشعور بالراحة عند قضاء الحق

جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموى :

جاء رجل إلى الشافعي فقال له : أصلحك الله ! صديقك فلان غليل .

فقال الشافعي :

والله لقد أحسنت إليّ ، وأيقظتني لمكرمة ، ودفعت عني اعتذاراً يشوبه الكذب !

ثم قال :

يا غلام ، هات السبتية (السبتية : نعال مدبوغة لينة) .

ثم قال : لَلْمَشْيِ عَلَى الْحَفَاءِ : (بلا نعل) .

على عِلَّةِ الْوَجَاءِ : (العلة المؤلمة كأنها من الوجأ باليد أو السكين) .

في حر الرَّمضاء (الأرض الحارة من شدة الحر في الصيف ووهج الشمس) .

من ذى طَوًى (جوع) .

أهون من اعتذار ، إلى صديق يشوبه الكذب .

ثم أنشد :

أرى راحةً للحقِّ عند قضائه	ويثقل يوماً إن تركت على عمْد
وحسبك حظاً أن تُرى غير كاذبٍ	وقولك لم أعلم وذاك من الجُهد
ومن يقض حقَّ الجار بعد ابن عمِّه	وصاحبه الأدنى على القُرب والبُعد
يعش سَيِّداً يستعذبُ الناسُ ذكره	وإن نابه حقُّ أثوه على قَصْد

[معجم الأدباء]

وقفه مع النص :

روى هذا النص خيشمة بن سليمان بن حيدرة عن الشافعي رضى الله عنه ، وهو يدور حول « حقوق الناس والمصارعة إلى قضائها » وما أشد حاجتنا إلى التأسي بما قاله الإمام الشافعي فالكثيرون اليوم — أمام مشاغل الحياة — يهملون حق الصديق مكتفين بأعذار واهية يشوبها الكذب !

فماذا يشعر الإمام الشافعى عند قضاء الحق ؟ إنه يقول :
أرى راحة للحق عند قضائه .

وماذا يحدث إن تُرك أداء الحق عن عمد ؟

إنه يثقل على من ترك أدائه ، حتى تتراكم عليه الحقوق ، ويشعر بالتقصير
والذنب !

ويكفى الإنسان فى دنياه أن يُرى غير كاذب وذلك بمسارحته إلى أداء الواجب
عندما يعلم ؛ ففى الاعتذار بقوله : لا أعلم جهد ومشقة على النفوس .

وهل عِلِمَ أولئك الذين يقصرون فى أداء الواجب أن من يقض حق القرابة
والصداقة والجيرة قربت أم بعدت يشعر بسعادة غامرة ويعيش سيّداً يحلو للناس أن
يذكروه بالخير .

وإن أصابه — لا قدر الله مكروهه — سارعوا لأدائه واجبه عن طوعية .

إن باب المكارم مفتوح على مصراعيه يدخله فاعلو الخير فهلاً سارعت إلى
مَكْرَمَةٍ ؟!

أفضل ما استفاد المرء

جاء فى حلية الأولياء لأبى نعيم قال :

حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا يوسف بن عبد الأحد ، قال :

قلت للمزنى : كان الشافعى يتروّح (أى يروّح عن نفسه) بيتين من الشعر ماهما؟

فأنشدنى :

وَيَأْبَى اللّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا

وَتَقْوَى اللّهُ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ

يَقُولُ الْمَرْءُ فَإِنْدَتَى وَمَالَى

[حلية الأولياء]

وقفه مع النص :

إن تقوى الله ركيزة من ركائز الإيمان ، وبدونها ينهار البنيان ، وتفسد حياة الإنسان .

وبالتقوى ينتظم أمر أخلاق الأمة وآدابها فتسلم من السقوط والفساد .

ألم يقل الله سبحانه : إنها ﴿ خير الزاد ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

إن بيتي الشافعي يلتقيان مع قول القائل :

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكن التقى هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

فوائد الأسفار

بُحَّ صَوْتُ الْقَدَامَى مِنْ كَثْرَةِ مَا دَعَوْا إِلَى التَّغَرُّبِ وَالسَّفَرِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالرِّزْقِ .
ومضى وقت كان الرجل يبكى حين يعلم أنه قد وقع عليه الاختيار لیسافر إلى قطر
من الأقطار حتى جاء الوقت الذى آمن فيه الجميع بفائدة السفر رجالاً ونساءً وشباباً
وشيباً ..

ومع هذا فما تزال أبيات الإمام الشافعي تفرع آذان القابعين ، وتفتح الأعين على
خمس فوائد للمسافرين .

١ - تَغَرُّبٌ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ

وسافر ففى الأسفارِ خمسُ فوائدٍ :

٢ - تَفَرُّجُ هَمٍّ ، وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ

وَعِلْمٌ ، وَآدَابٌ ، وَصُحْبَةٌ مَاجِدٍ

[مرآة الجنان وعبرة اليقظان]

وقفه مع النص :

إن من يسافر يرى الجديد الممتع ، فتسعد نفسه ، ويزول همّه ، وقد رأينا كيف يعود المسافرون بما يتيح لهم حياة سعيدة ، ومنهم من حصل جوانب من العلم النافع والخبرة الثمرة ، إلى جانب ما يحصل عليه المسافر من آداب المعاملة واللقاء والمعاشرة ، ولا يخلو الأمر من اكتساب صداقات ذات فضل ومجد .

الأقربون أولى بالمعروف

جاء في الانتقاء :

وفد محمد بن إدريس الشافعي على رجل من قومه باليمن كان بها أميراً ، فأقام عنده أياماً ، ثم سأله الرجوع إلى داره وموضعه ، فكتب إليه يعتذر ، وعرض عليه شيئاً يسيراً !!

فكتب الشافعي أبياتاً في ظهر رقعته :

١ — أَتَانِي عُذْرُ مَنْكَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ

كَأَنَّكَ عَنْ بَرٍّ بِذَاكَ تَحِيدُ !

٢ — لَسَانُكَ هَشٌّ بِالتَّوَالِ وَمَا أَرَى

يَمِينُكَ إِنْ جَاءَ اللِّسَانُ تَجُودُ

٣ — فَإِنْ قُلْتَ لِي يَتِّ وَسِطٌ وَسِطَةٌ

وَأَسْلَافُ صِدْقٍ قَدْ مَضَوْا وَجُدُودُ

٤ — صَدَقْتَ وَلَكِنْ أَتَّ خَرَبْتُ مَا بَنَوُا

بِكُفَيْكَ عَمْدًا وَابْنَاءُ جَدِيدُ

٥ — إِذَا كَانَ ذُو الْقُرْبَى لَدَيْكَ مُبْعَدًا

وَنَالَ الَّذِي يَهْوَى لَدَيْكَ بَعِيدُ

٦ - تُفَرِّقُ عَنْكَ الْأَقْرَبُونَ لِشَأْنِهِمْ
وَأَشْتَقْتُ أَنْ تُبْقَى وَأَنْتَ وَحِيدٌ

٧ - وَأَصْبَحْتَ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالذَّمِّ وَاقِفًا

فِيالَيْتَ شِعْرِي أَى ذَاكَ تَرِيدُ !؟

[الانتقاء]

فكتب إليه :

بل أريد منك الحمد بأى أنت وأمى !
وقد وجهت إليك خمس مائة دينار لنفقتك ، وعشرة أثواب من حَبْر اليمن .
وبختين .

والسلام .

وقفة مع النص :

هذه الأبيات عتاب من الشافعى لقربيه اليمنى ذكره فيها بأنه لا مجال للاعتذار عن مساعدته وبره ، وقد سمع منه جوداً وكرماً باللسان لا بالفعل ، ثم وضع له أنه خرب ما بنى أسلافه وجدوده بكفيه عمداً .

وشأن من يبعد الأقارب ، ويقرب الأبعد أن ينظر يوماً حوله فيجد نفسه وحيداً بين الحمد والذم .. وراح يسأله : أيهما تريد!؟

وكان للعتاب أثره ، فأراد قربيه الحمد ووصله بعتاء كريم .

والحبرة — كعنية — بُرْدُ يَمَانٍ . والجمع حَبْر — كعنب .

والبُخْتَى من الإبل جمعه بخاتى . ولك أن تخفف الياء في الجمع ، والأنثى بختية .

عداوة الحاسد

جاء في نور الأبصار للشبلنجى قوله :

قال الشافعي :

١ — كل العداوة قد تُرجى مودَّتها

إلا عداوة مَنْ عاداك مِنْ حَسَدٍ !

وقفة مع البيت :

إن الحسود قد تمكن الحقد من قلبه ، وحمل كراهيةً لصاحب النعمة ، فهو يكره نعمة الله عليه ، ويتمنى زوالها ، وقد يسعى لإزالتها .

ومن أجل هذا طلب الله — سبحانه — من نبيه ﷺ أن يستعيز من شر حاسد إذا حسد .

إن الحسود كما يقول النحويون :

« أئى هكذا خلقت » !!

فلا أمل في مودته !

وعلينا أن نستعيز بالله من شره !

العلم الأخروى

قال رضى الله عنه :

١ — مَنْ تَعَلَّمَ لِلْمَعَادِ فَازَ بِفَضْلِ مِنَ الرَّشَادِ

٢ — وَنَالَ حُسْنًا لِطَالِيهِ وَفَضْلَ نَيْلٍ مِنَ الْعِبَادِ

وقفة مع النص :

لا يخلو التعلم بالعلوم الأخروية من فوائد ، فمن تعلّم ما يعينه على أن يلقى الله

وهو حائز لرضاه فاز بفضل ونصيب من الهداية والرشاد .
ونال استحسان طلابه وأفادهم ، فأمدّه العباد الصالحون بنوالهم وعطائهم .

قافية الراء

جنان الخلد

يَا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا يُمَسِّي وَيُضْبِحُ فِي دُنْيَاهُ سَفَّارَا
هَلَّا تَرَكْتَ لِيذِي الدُّنْيَا مُعَانِقَةً حَتَّى تُعَانِقَ فِي الْفِرْدَوْسِ أَبْكَارَا
إِنْ كُنْتُ تُبْغِي جِنَانَ الْخُلْدِ تُسَكِّنْهَا
فَيُبْغِي لَكَ أَلَّا تَأْمَنَ النَّارَا

وقفه مع النص :

الذين يُقْبِلُونَ عَلَى الدُّنْيَا وَمَافِيهَا مِنْ مَلَاذٍّ وَشَهَوَاتٍ يَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى سَفَرٍ .
أَمَّا كَانَ الْأَجْدَرُ بِهِمْ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ شَهَوَاتِهِمْ ، إِنْ كَانُوا يَبْغُونَ جِنَانَ الْخُلْدِ حَقًّا ،
لِيُعَانِقُوا مَا وُعدُوا بِهِ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ مِنْ أَبْكَارِ الْفِرْدَوْسِ ؟
: إِنْ كَانُوا جَادِينَ فِي طَلَبِ جِنَانَ الْخُلْدِ فَيُبْغِي لَهُمْ أَلَّا يَأْمَنُوا النَّارَ !! وَأَلَّا تُلْهِمَهُمُ
الدُّنْيَا بِمِفَاتِهَا عَنِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا الدَّائِمِ .

وَالسَّفَّارُ : الْمُرْتَحِلُ ، وَالدُّنْيَا لَيْسَتْ دَارَ إِقَامَةٍ ، وَكُلُّنَا فِيهَا عَلَى سَفَرٍ .

الهمة العالية

أورد صاحب دائرة معارف القرن العشرين في الجزء الخامس الأبيات الثلاثة الأولى
من المقطوعة الآتية وتنسب للبارودي باعتباره قد نفى إلى سرنديب ولعل البارودي

كان يتمثل بها فقط .

وتقول أبيات المقطوعة الأربعة :

١ — أمطري لؤلؤاً جبال سرندي

بَ وفيضى آبار تَكَرَّورَ تَبَراً

٢ — أنا إن عِشْتُ لست أَغْدُمُ قوتاً

وَإِذَا مِتُّ لست أَغْدِمُ قَبَراً

٣ — هِمَّتِي همة الملوك ونفسي

نَفْسُ حُرٍّ ترى المذلة كُفْراً

٤ — وَإِذَا مَا قَنَعْتُ بالقوتِ عُمري

فَلِمَاذَا أَزُورُ زَيْدًا وَعَمراً ؟

[دائرة معارف القرن العشرين]

مع الأبيات :

تدور الأبيات حول القناعة بالقوت الضروري مما يكفل للنفس عزتها فتصبح غير محتاجة لزيارة فلان من الناس !

ومادام الأمر كذلك فسوف يجد القوت في أى مكان والقبر حيث كان !
ولتَجِدُ الجبالُ بكنوزها ، والأرضُ يبتروها وذهبها فذلك لن يغير من شأنه ،
فسوف تظل همته عالية ، يحمل نفساً حرة ترى المذلة كُفْراً !

الوَخْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السَّوْءِ

الناس رجلان : تَقِيٌّ وَغَوِيٌّ ..

والتقى : الذى يلزم الطاعة ، ولا يقع فى المعصية ، فيتقى موارد السوء .

والغَى : فساد العيش ، أو فساد الاعتقاد ، أو الضلال والخيبة ، والذي انهمك في الغَى : غَوَى .

فماذا يفعل الإنسان إذا لم يجد خليلاً أو صديقاً تقيّاً ؟
يجيب الشافعى فيقول :

- ١ - إذا لم أَجِدْ خِلاًّ تَقِيّاً فَوَحْدَتِي
- أَلَذُّ وَأَشْهَى مِنْ غَوَى أَعَاشِرِهِ
- ٢ - وَأَجْلِسُ وَخِدَى لِلْعِبَادَةِ آمِناً
- أَقْرُّ لِعَيْنِي مِنْ جَلِيسِ أَحَاذِرِهِ

وقفه مع النص :

إن الوحدة خير من جليس السوء ، فهي أَلَذُّ وَأَشْهَى من معاشرة الغَوَى .
وفيها يتفرغ الإنسان لعبادة ربه آمناً مطمئناً قَرِيرَ الْعَيْنِ ، وكيف يطمئن بال
الإنسان مع صديق لا أمان له يعيش معه حياة كلها حذر وخوف من مكره وشره
والأعْيِيهِ ؟!

وقد رأينا جناية الأصدقاء غير الأتقياء على الأبناء والآباء !!

إِحْسَانُ الظَّنِّ بِالْأَيَّامِ

نحن مع شخصية يُهْدَى إليها الشافعى تحذيره ونصحه .. إنها شخصية إنسان يتيه
على الناس ويتعالى عليهم دون أن يعمل حساباً لما تأتى به الأيام .
وخير ما يستعمله الحذر !

لكنه أحسن ظنه بالأيام حين حسنت ولم يَحْفَ سوء ما يأتى به القدر !

ولقد تملكه الغرور حين سالمته الليالي ومادري أنه : عند صفو الليالي يحدث الكدر !!

لقد قال اللغويون : إن الأعرح حية صماء لا تقبل الرقي . والأعور والأعرج هو الغراب حين يحجل .. ويمكن أن يكون الأعرج إنساناً شريراً أو تياهاً بطراً يختال في مشيته .

فتعال إلى أبيات الشافعي :

اليقظة والحذر

تَاهُ الْأَعْرَجُ وَاسْتَعْلَى بِهِ الْبَطْرُ فَقُلْ لَهُ خَيْرُ مَا اسْتَعْمَلْتَهُ الْحَذَرُ
أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَحْفَ سَوْءَ مَا تَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزْتُ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

[الانتقاء]

وقفة مع النص :

البطر : الأشر وكفران النعمة وجحودها ونحو يدفع صاحبه إلى التعالي على غيره أو التعالي والغلو في تيهه وتكبره .

قبول العذر

إن لنا الظاهر والله يحكم بالسرائر ، والشافعي يطلب منا أن نقبل أعذار المعتذرين سواء كانوا صادقين أم كاذبين ! (برؤا أو فجروا) .

فما زالت فيهم بقية من خير !

فالذي يرضيك ظاهره يُعَدُّ مطيعاً لك !

والذى يعصيك مستتراً قد أجلك وعظمك وعمل لوجودك حساباً !

وإن الذى يعتذر خير ممن يتبجح ولا يعتذر !!

وإن الذى لا يجاهر بالعصيان خير ممن يعلنونه !!

وعلينا أن نتعهد هؤلاء وأولئك حتى يعودوا إلى حظيرة الإيمان .

وفى السابقين من كان يحسن الظن بمن قصروا ويلتمس لهم الأعذار ويقول مُسَبِّحاً :

لعلَّ له عُذْرًا وأنت تلوم !

فتعال إلى إمامنا الشافعى نطالع نصيحته :

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا إِنَّ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرًا
لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرًا

وقفة مع النص :

يُقال بَرٌّ فى يمينه : أى صدق وكان باراً ، وفجر : كذب وكان فاجراً .
والآيات نصيحة غالية تُبقى على البقية الباقية من حياء ، وتجعلنا نقبل الناس على علائهم .

أدب المناظرة

كان الشافعى رضى الله عنه النموذج الحى لأدب المناظرة ؛ فقد عرف بتواضعه وخضوعه للحق .

ويقول : « ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ » .

« وما فى قلبى من علم إلا وددت أنه عند كل أحد ، ولا يُتَسَبَّ إليه » .

ويقول : « ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة » .

« وما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلهما إلا هبته ، واعتقدت مودته ، ولا كابرني على الحق أحد ، ودافع الحجة إلا سقط من عيني » .

والمناظرة : مباراة في المُحاجة وصولاً إلى الحقيقة .

والإمام الشافعي خير من يقدم لنا أدب المناظرة فكم نحن في أمس الحاجة إليه في حياتنا العلمية والأدبية .

ولقد عانى الإمام الشافعي من إسراف « فتيان بن أبي السمح » الفقيه المالكي في اللَّدَدِ والخصومة في مناظراته حيث وجه إليه كلاماً لا يصح أن يُقال ؛ مما جعل أمير مصر — حين علم بالأمر — يعاقب ابن أبي السمح عقاباً شديداً زاجراً .

لهذا كانت أبيات الشافعي الخمسة دستوراً في أدب المناظرة . وكيف لا وهي نابعة من تجربة شخصية ؟!

إنه يقول :

- | | |
|--------------------------------------|------------------------------|
| ١ — إذا ما كُنْتُ ذا فَضْلٍ وَعِلْمٍ | بما اختلفَ الأوائل والأواخرُ |
| ٢ — فناظر من تناظر في سكونٍ | حليماً لا تُلحُ ولا تكابرُ |
| ٣ — يُفيدُك ما استفادَ بلا امتنانٍ | من النكتِ اللطيفة والتوادُرُ |
| ٤ — وإياك اللجوج ومن يُرائي | بأنى قد غلبتُ ومن يُفاخرُ |
| ٥ — فإن الشرَّ في جنّاتِ هذا | يُمْنى بالتقاطع والتدابُرُ |

وقفه مع النص :

مادام المناظر ذا فضل وعلم بخلافيات الأوائل والأواخر ، فله أن يناظر من يناظر متحلياً بآداب المناظرة .

- ١ — في سكون ، فإذا علا الصوت هبط المنطق .

- ٢ — في حلم ، فالغضب نار تلتهم الفكر والعقل .
- ٣ — يتخلى عن الإلحاح واللجاجة ، والتمادى في الخصومة ، والعناد والمكابرة .
ومثل هذه الروح حين تسود المناظرة تؤتى أكلها من أسرار ، وجكم ، ونكات
ونوادير ما كان يمكن الحصول عليها لولا تلك المناظرة .
وعليها أن نحذر مناظرة هؤلاء :
- ١ — اللجوج : وهو المتمادى في الخصومة .
- ٢ — المرائى : وهو الذى يبغي الظهور على مناظره وأنه قد غلبه وليس هدفه
الوصول إلى الحق .
- ٣ — من يفاخر : ويستعرض عضلاته وهدفه أن يرى الناس علمه وتفوقه
ليتحدثوا عنه .
- ومثل هذا يقال فيه : إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت .. إنه يحمل
بين طياته شراً حصاده القطيعة .

الدهر يومان

وقديماً قالوا : يوم لنا ويوم علينا .. ويوماً نُسَاء ويوماً نُسَرَّ !
وهكذا الحياة كما تبدو في مرآة الشافعى يَصْرُنَا بها ؛ كى نوطن أنفسنا على تقبلها
ومعاشتها بحلوها ومُرَّها فهو يقول :

إن الدهر يومان : يوم كله أمن .. ويوم مخفوف بالخطر !
ونحن نشهد فى أيامنا أن الأيام تتبادل فيما بينها الحرب والسلام .
وعيش الناس — أيضاً — عيشان : عيش صَفْو ، وعيش كدر . وعند صفو
الليالى يحدث الكدر !

وربما كان حظ الأكابر والأشراف دون غيرهم أَمْنًا وصفوًا . فبينما تستقر الدرر
والنفائس بالقاع تطفو وتظهر على السطح الجيف وهذا ما نشاهده في بعض
مجمعاتنا .

وبينما تنجو نجوم كثيرة من الأخطار المحدقة بها متمتعة بحرية الحركة والظهور نجد
أنه لا يكسف ولا يخسف منها إلا الشمس والقمر !
وإليك ما قاله الشافعي :

- ١ — الدَّهْرُ يَوْمَانِ : ذَا أَمْنٍ وَذَا حَظَرٍ
وَالْعَيْشُ عَيْشَانِ : ذَا صَفْوٍ وَذَا كَدَرٍ
- ٢ — أَمَّا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيفٌ
وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَاعِهِ الدَّرَرُ ؟!
- ٣ — وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا
وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ !!

وقفة مع النص :

وطَنَ نَفْسِكَ عَلَى تَقَبُّلِ حَيَاتِكَ مَا دَامَتْ هِيَ كَذَلِكَ .

فضل السكوت

قال الأقدمون :

إذا كان الكلام من فضة ، فالسكوت من ذهب !

وقالوا : من كثر لفظه كثر غلطه .

وفي حياتنا اليومية لا نجد من يندم على سكوته مرة بينما نجد من يندم على الكلام
مراراً !

من هنا راح الشافعي يحدثنا عن فضل السكوت .. إنه تجارة ، وعلى أسوأ

الفروض إذا لم يظهر ربحها فليس فيها خسارة محققة .

إن الصمت بضاعة الرجال وتجارته ، وتاجره يعلو على كل تاجر . إن الإمام الشافعي يحدثنا عن تجربته في هذا المجال فيقول .

١ - وَجَدْتُ سَكُوتِي مَتَجَرًّا فَلَزِمْتُهُ

إِذَا لَمْ أَجِدْ رِبْحًا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ

٢ - وَمَا الصَّمْتُ إِلَّا فِي الرِّجَالِ مَتَاجِرٌ

وَتَاجِرُهُ يَغْلُو عَلَى كُلِّ تَاجِرٍ

مع النص :

المتجر ، والتجارة ، والمتاجر : ما يُتاجر فيه من عروض التجارة وغيرها ونساؤنا أشد حاجة إلى « الصمت » من الرجال !!

ألا ليت النساء يجعلنه تجارتهن ، فيألهن من تجارة ، فيها كآلهن ، وصَوْنُهُن !! وأمنهن وجمالهن . إلى جانب ما يغمر البيوت من سكينه واطمئنان وهديء وراحة بال .

الرَّضَا بِالْقَدَرِ

لا يملك الإنسان إلا الرضا بحكم الدهر ، والتسليم بقضاء الله ؛ فقد تتخلى الأيام عن إنسان ، وتسقيه المر بعد الحلو وتخون العهود ، وربما كان هذا الإنسان يأمل في حياة سعيدة ومستقبل مشرق باسم فيقع — على الرغم منه — ما لم يكن يتوقعه ومع هذا فإن عليه أن يرضى بما حكم الدهر !

وللإمام الشافعي تجربته في هذا المجال فيقول :

١ - وَمَا أَنَا رَاضٍ مِنْ زِمَانِي بِمَا تُرَى

وَلَكِنِّي رَاضٍ بِمَا حَكَمَ الدَّهْرُ

٢ - فَإِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ خَانَتْ عَهْدَنَا

فَإِنِّي بِهَا رَاضٍ وَلَكِنِّي قَهْرُ

دية الذنب

الدية ما يُعطاه أولياء القَتيل من مالٍ عوضاً من دمه .. وهى مقدرة فى الشرع والجمع ديات .

والإمام الشافعى يرى فى الاعتذار عن الذنب « دية الذنب » .

إنه يقول :

١ - قيل لى :

قَدْ أَسَى إِلَيْكَ فُلَانٌ . . . وَمُقَامُ الْفَتَى عَلَى الدُّلِّ عَارٌ !

٢ - قلت :

قد جاءنى وأُحْدِثَ عُذْرًا . . . دية الذنب عندنا الاعتذارُ

وقفه مع النص :

يراد بالعتذر محو الإساءة وطمسها بالحجة التى يمكن بها ذلك .

وقد قيل للشافعى : إن فلانا أساء إليك ، وسكوتك عن الرد عليه فيه إقامة على

الذل ورضا به ؛ ذلك عار عليك !

ولكن الشافعى أسكتهم بقوله :

لقد جاءنى وقدم عذرا ، والعتذر يشبه « الدية » حيث يحو الإساءة ، فكأن شيئاً

لم يكن !

إن الله سبحانه وصف نفسه بأنه : غافر الذنب وقابل التوب ، فما بالنا — نحن

البشر لا نقبل عذر من جاء واعتذر !؟

وأسى المقصور مثل أساء الممدودة وهما بمعنى .

الشوق إلى مصر

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها

ومصر كثير العشاق .. وقد تآقت نفس الشافعى إليها وبينه وبينها صحارى

واسعة وقفار شاسعة ، لا بد أن يقطعها في سفر طويل حتى ينعم بالرحيل إليها
ويحقق ما يرجوه ويأمله .

ولكنه حائر لا يدري ماذا يكون مصيره فيها ؟!

أيساق للفوز والغنى ؟!

أم يساق إلى قبره ؟!

لقد رحل الشافعي رحلات كثيرة كان لها أثرها في حياته العلمية فبعد وفاة الإمام
مالك رحل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة ، ثم رجع إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ فأقام فيها
شهوراً ، ثم خرج إلى مصر وكان وصوله إليها في سنة ١٩٩ هـ وقيل في سنة ٢٠١ هـ ،
ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤ هـ كما جاء في
وفيات الأعيان لابن خلكان .

تري هل كان يشعر باقتراب أجله ؟!

إنه يقول :

١ — لقد أصبحت نفسي تُثوق إلى مصر

ومن دونها قطع المهامه والقفر

٢ — فوالله ما أدري أالفوز والغنى

أساق إليها أم إلى القبر

[معجم الأدباء ، والانتقاء]

مع النص :

جاء في معجم الأدباء ذكر هذين البيتين عن أبي بكر بن بنت الشافعي قال :

قال الشافعي بمكة حين أراد الخروج إلى مصر هذين البيتين ، ولكن ابن عبد البر
في الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء يذكر رواية أخرى — لعلها تناسب مسار
رحلاته — فقال ، ورد عن أبي الحسن بن محمد الصباح الزعفراني قال : لما أراد
الشافعي الخروج من العراق إلى مصر أنشد لنفسه :

أخى أرى نفسى تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المفاوز والقفر
فوالله ما أدرى ألفتوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى ؟!



والمَهَامِه جمع مَهَمَه : الصحراء الواسعة وكذلك المفاوز جمع مفازة : الصحراء
المهلكة . والقفر : الأرض الخلاء التى لا نبات فيها ولا سكان .

العبرة باللابس لا بالملابس

ورد فى حلية الأولياء لأبى نُعَيْم :

حدثنا أبو الفضل نصر بن أبى نصر الطوسى قال :

سمعت أبا الحسن على بن أحمد القصرى يقول : حدثنى بعض شيوخنا قال :
لما أشخص الشافعى إلى (سُرَّ مَنْ رَأَى) دخلها وعليه أظمار رثة وطل شعره ،
فتقدم إلى مُزَيْنٍ فاستقذره لما نظر إلى رثائه ، فقال له : تمضى إلى غيرى ، فاشتد على
الشافعى أمره ، فالتفت إلى غلام كان معه فقال : أَيُّش مَعَكَ من النفقة ؟ قال :
عشرة دنانير قال : ادفعها إلى المزين ، فدفعها الغلام إليه ، فولى الشافعى وهو يقول :

١ - عَلَى ثِيَابٍ لَوْ ثَبَاغٌ جَمِيعُهَا

بِفَلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَا

٢ - وَفِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ ثَقَاسٌ يَبْغِضُهَا

نُفُوسُ الْوَرَى كَانَتْ أَجَلٌ وَأَكْبَرَا

٣ - وَمَاضَرَّ نَصْلُ السَّيْفِ إِحْلَاقُ غَمْدِهِ

إِذَا كَانَ عَضْبًا حَيْثُ وَجَّهَتْهُ قَرَى

٤ - فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَزْرَتْ يَبْزُقِ

فَكُمُ مِنْ حُسَامٍ فِي غِلَافٍ تَكْسَرَا

وقفة مع الأبيات :

صحيح أن الدين يأمر بالنظافة ، وليس من الكبر أن يكون الرجل ثوبه نظيفاً ونعله نظيفاً ، والجمال محبوب ، لكن ماذا يفعل من يمر بظروف تقضى عليه أن يكون رث الثياب ؟

هنا ينبغي أن يكون تقيمينا للناس على أساس التقوى والسلوك القويم ، فالله لا ينظر إلى صورنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا . ومما يؤلم النفس العزيزة أن يزدريها الناس للظروف التي تمر بها ، وللثياب التي ترتديها فالسيف لا يضره تمزق غمده وغلافه ما دام قاطعاً بتاراً . وهكذا يلفتنا الشافعي إلى ما ينبغي أن نكون عليه من تقدير للنفوس العزيزة وإن بدت في بزة (ملابس) رثة !

والفلس : عملة تساوى المليم . والورى الخلق . ونصل السيف : حده . والغمد : ما يوضع فيه السيف .

والعَضْب : القاطع . وفرى : قطع . أزرت : حقرت . والحسام : السيف القاطع . والبيزة : الثياب . وأخلق : بلى وتمزق وقُدَم وصار خَلْقاً . قديماً .

احذر مودة الناس !

يبدو أن الشافعي كان نسيج وحده خلقاً وعِلْماً وأنه كان يعاني الغربة في زمانه ، ويفتقد المودة الصادقة .

وهو هنا يحدثنا عن تجربته وينصح لنا ألا نساير الزمان وأهله وأن نغسل أيدينا منهما ، وأن نحذر مودة الناس ؛ لننال الخير !

لقد اطلع على أحوال الناس فلم يجد له صاحباً يصحبه ، فترك أسفلهم لكثرة شره ، وأعلاههم لقلّة خيره !

إنه يقول :

كُنْ سَاكِنًا فِي ذَا الزَّمَانِ بِسَيْرِهِ وَعَنِ الْوَرَى كُنْ رَاهِبًا فِي ذَنْبِهِ
وَاغْسِلْ يَدَيْكَ مِنَ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ وَاخْذَرْ مَوَدَّتَهُمْ تَلْ مِنْ خَيْرِهِ

إِنِّي أَطَّلَعْتُ فَلَمْ أَجِدْ لِي صَاحِبًا أَصْحَبُهُ فِي الدَّهْرِ وَلَا فِي غَيْرِهِ
فَتَرَكْتُ أَسْفَلَ هُمْ لَكثَرَةِ شَرِّهِ وَتَرَكْتُ أَعْلَاهُمْ لِقَلَّةِ خَيْرِهِ
وأراك تقول :

الدعوة إلى العزلة والرهينة ، ونفض اليد من الزمان وأهله وعدم مسيرته دعوة
انعزالية سلبية ليس وراءها إلا التوقف والضعف . فلا رهبانية في الإسلام .
ولابد أن يكون للإنسان رسالة ودور في حياته ، إنما ينبغى الحذر حتى لا يلدغ
من جحر مرتين ، ولا مانع حين يتعامل مع الذئاب — أن تكون فأسه في يده — كما
قالوا !!

وسوف يظل الخير في أمتنا حتى قيام الساعة ولن يعدم الإنسان الخيرين !

المرء بأصغريه قلبه ولسانه

وبالقلب واللسان تصدى الشافعي للمشكلات وكشف حقائقها بالنظر دون أن
يسائل هذا وذلك فلم يكن أبداً إمعة !
إنه كما قال :

مُدْرَهُ الْأَصْغَرَيْنِ (قَوَى الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ) .

جَلَّابٌ خَيْرٌ !

وَفَرَّاجٌ شَرٌّ !

ذكر الأبيات الأربعة الآتية صاحب معجم الأدباء فقال في الجزء السابع عشر :
حدّث الحسن بن محمد الزعفراني قال : سئل الشافعي عن مسألة ، فأجاب فيها ، ثم
أنشأ يقول :

- ١ — إِذَا الْمَشْكَالَاتُ تَصَدَّيْنِ لِي كَشَفْتُ حَقَائِقَهَا بِالنَّظَرِ
- ٢ — لِسَانٌ كَشَفْشِقَةِ الْأَرْجَبِ وَكَالْخُسَامِ الْيَمَانِي الذَّكْرُ
- ٣ — وَلَسْتُ بِإِمْعَةٍ فِي الرَّجَا لَأَسْأَلَ هَذَا وَذَا مَا الْخَبَرُ ؟
- ٤ — وَلَكِنِّي مُدْرَهُ الْأَصْغَرَيْنِ جَلَّابٌ خَيْرٌ وَفَرَّاجٌ شَرٌّ

وقفه مع النص :

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن والفقير المجتهد مادام يملك وسائل الاجتهاد فليس يحسن به التقليد . إنه يكشف الحقائق بالنظر والتأمل .
إن له لساناً قادراً حاسماً في المشكلات ، وليس بأمّعة أو تابع لغيره ، وهو إلى جانب هذا وذاك مدّره الأصغرين : (قوى القلب واللسان) .
والأرحبى : نسبة إلى أرحب . والشقشقة : ما يخرج الجمل من فمه عند هياجه . ويقولون : النجائب الأرحبية . والحسام الذكر : القوى القاطع .
وقد جاء ذكر هذه الآيات أيضاً — في المستطرف للإبشيهي . ونور الأبصار .

كثرة الأخلاء وقلة الأعداء

ذكر الإمام الشعراني في كتابه تنبيه الغافلين قوله :

كان الشافعي — رضى الله عنه — كثيراً ما يُنشد قوله :

وليس كثيراً ألف خلّ لواحد وإن عدوّاً واحداً لكثير !

وقفه مع النص :

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حب الشافعي لكثرة الأصدقاء ، ونفوره من وجود الأعداء وهي أخلاق المعلمين والأئمة الذين يتعرضون للناس ويستكثرون من تلاميذهم وأصحابهم .

أمر فوق أمرى !

التوى والبعد مما يثير تفكير الإنسان وبخاصة إذا كان أليفاً .

ولا يملك الإنسان الذى يعانى بُعد الأليف إلا الصبر وعلو الهمة لكيلا تذوب نفسه حشرات . وإن كان يذم الأيام التى فرقت بينه وبين إلفه .

إنه لم يقصر ، ولكن قَدَّر الله وما شاء فعل ، والأمر أمره : لقد سعى إلى الخير جهده بهمة وصبر فإذا لم يتحقق له ما أراد فلتكن مشيئة الله !
إنه يقول :

- ١ - أفكر فى نوى إلفى وصبرى وأحمد همتى وأدُم دهرى
٢ - وما قصرت فى طلب ولكن لرب الناس أمر فوق أمرى

من نكد الدنيا على الإنسان !!

ما أكثر صور التّعاسة والشقاء فى حياتنا !!

تحب إنسانا وتعطيه من نفسك ومالك ؛ فيحب غيرك ولا يحبك .
تريد الخير لإنسان وتفكر فى مصلحته بينما هو يفكر فى الإضرار بك وضيرك !
وكم فى الدنيا من مفارقات عجيبة وأمور غريبة ، فعلينا ألا نفاجأ بها ، ونُدْهَش لها ، ونُصْدم عند وقوعها ؛ فقلك هى الدنيا ! ، وهذا هو حالها وشأنها !!
ومع هذا فلن يجف نهر الحب !

وسيزل الخير فى أمتنا إلى يوم القيامة !

إن الإمام الشافعى يعيش تجارب إنسانية فيصور وقعها على نفوس المحبين والخيرين ليس إلا . فكم يكون جميلا تبادل المحبة والخير !!

- ١ - وَمَنْ الشَّقَاوَةُ أَنْ تُحِبَّ وَمَنْ تُحِبَّ يُحِبُّ غَيْرَكَ
٢ - أَوْ أَنْ تُرِيدَ الْخَيْرَ لِلْإِنْسَانِ وَهُوَ يُرِيدُ ضَيْرَكَ

[آداب الشافعى ومناقبه]

وتمر الأيام ونجد زوجة تتخذ لها عشيقة ، وابنا يتآمر مع أصدقائه على أبيه ، أليس ذلك من الشقاوة والتعاسة ، وسوء الحظ !!؟

س قافية السين

البحث عن صديق

يرى الإمام الشافعى أن الصديق الذى لا ينفع يوم شدة قريب الشبه بالعدو . وما قيمة الاحتفاظ بالإخوان والأصدقاء إذا لم يكن لهم دور فى مواساة الصديق والتخفيف عنه ومساعدته على الخروج من الأزمة والشدة التى حلت به ؟ إن البحث عن « أخى ثقة » شغل الشافعى حتى ألهاه التماسه طوال الدهر . وأخيراً وبعد جهد وجد البلاد ومن عليها قد تنكرت له ، وكأن أناسها ليسوا بناس ، إنه يحدثنا عن تجربته فى رحلة البحث عن صديق فيقول :

- ١ - صَدِيقٌ لَيْسَ يَنْفَعُ يَوْمَ بُوسٍ
قَرِيبٌ مِنْ عَدُوٍّ فِي الْقِيَاسِ
 - ٢ - وَمَا يَبْقَى الصَّدِيقُ بِكُلِّ عَصْرِ
وَلَا الْإِخْوَانُ إِلَّا لِلتَّاسِي
 - ٣ - عَبَرْتُ الدَّهْرَ مُلْتَمِسًا بِجُهْدِي
أَخًا ثَقَّةً فَأَلْهَانِي التِّمَاسِي
 - ٤ - تَنَكَّرَتِ الْبِلَادُ مِنْ عَلَيْهَا
كَأَنَّ أَتْسَاهَا لَيْسُوا بِنَّاسِ
- ### مناجاة !

إن رحمة الله تملأ قلبه أنساً وفرحاً وطمأنينة فى السر والجهر والإصباح والغلس (ظلمة آخر الليل) .

ولا يفتأ بذكر الله حتى عندما يتقلب من نومه وفي سنته (نعاسه الخفيف) الذي يسبق النوم . فذكر الله على لسان كل مؤمن .

وكيف لا وقد منَّ الله على قلبه بمعرفة آلائه ونعمه فهو ذو الآلاء والبركات . والله هو القدوس الطاهر المنزه عن النقائص .

والشافعي يذكر ذنوبه التي يعلمها الله وأمله أن الله لن يفضحه ، ولن ينزل به ما يسىء .

وهو يطلب من ربه أن يمنَّ عليه بذكر الصالحين ليكونوا قدوة له على الطريق ، وأن يفقهه في الدين ويزيل ما يلتبس عليه .

وأن يكون معه طول دُنياه وآخرته ويوم حشره بحق ما جاء في سورة عبس من ذكر الصحف والوجوه المستبشرة ! انه يقول :

١ - قَلْبِي بِرَحْمَتِكَ اللَّهُمَّ ذُو أُنْسٍ
فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ وَالْإَصْبَاحِ وَالْعَلَسِ

٢ - وَمَا ثَقَلْتُ مِنْ نَوْمِي وَفِي سِنَتِي
إِلَّا وَذَكَرْتُكَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالنَّفْسِ

٣ - لَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ قَلْبِي بِمَعْرِفَةٍ
بِأَنَّكَ اللَّهُ ذُو الْآلَاءِ وَالْقُدْسِ

٤ - وَقَدْ أَتَيْتُ ذُنُوباً أَتَتْ تَعْلَمُهَا
وَلَمْ تَكُنْ فَاضِحِي فِيهَا بِفِعْلِ مُسِي

٥ - فَأَمَنْتُ عَلَى بَذْرِ الصَّالِحِينَ وَلَا
تَجْعَلْ عَلَيَّ إِذَا فِي الدِّينِ مِنْ لَبْسٍ

٦ - وَكُنْ مَعِيَ طُولَ دُنْيَايَ وَآخِرَتِي
وَيَوْمَ حَشْرِي بِمَا أُنْزَلْتُ فِي عَبَسٍ

وقفه الحرّ بياب نحس

كان الإمام الشافعي عزيز النفس سخياً حتى قال مخالطوه : إنه كان أسخى الناس بما يجده .

وقال عن نفسه : لقد أفلست ثلاثة إفلامات ، فكنت أبيع قليل وكثيري حتى حُلِّيَ ابنتي وزوجتي ولم أرهن قط ! ويقول البُستى نزيب مكة : كان الشافعي قلماً يمسك الشيء من سماحته .

وقال الحميدى قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ف ضرب خبائه خارج مكة ، فكان الناس يأتونه ، فما برح حتى فرّقها جميعاً .

ومن أجل هذا نراه يجمع ما يكاد يكون حدوثه شاقاً على النفس أو مستحيلاً حدوثه فيراه أهون من وقفة الحر بياب نحس يرجو نواله وعطاءه ! ثرى ماذا قال ؟

- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------|
| ١ - لَقْلَعُ ضِرْسٍ، وَضَرْبُ حَبْسٍ | وَنَزْعُ نَفْسٍ، وَرَدُّ أَمْسٍ |
| ٢ - وَقَرْ بَرْدٍ، وَقَوْدُ فَرْدٍ | وَدَبْعُ جَلْدٍ بِغَيْرِ شَمْسٍ |
| ٣ - وَأَكْلُ ضَبٍّ، وَصَيْدُ دُبٍّ | وَصِرْفُ حَبٍّ بِأَرْضِ حَرْسٍ |
| ٤ - وَنَفْحُ نَارٍ، وَحَمْلُ غَارٍ | وَيَبْعُ دَارٍ بِرُبْعِ فَلْسٍ |
| ٥ - وَيَبْعُ خُفٍّ، وَعَدْمُ إلفٍ | وَضَرْبُ أَلْفٍ بِحَبْلِ قَلْسٍ |
| ٦ - أَهْوَنُ مِنْ وَقْفَةِ الْحَرِّ | يَرْجُو نَوَالاً بِبَابِ نَحْسٍ |

وقفه مع النص :

لقد عد ستة عشر لونا أهون على نفسه من الوقوف بياب نحس .

١ - قَلْعُ ضِرْسٍ .

٢ - ضَرْبُ حَبْسٍ .

- ٣ — نزع نفس (خروج الروح) .
- ٤ — ردّ أمس (إعادة اليوم الذى مضى) .
- ٥ — القَر (شدة البرد) .
- ٦ — قود فرد (قتله قصاصا) .
- ٧ — ذبغ جلد بغير شمس (قبل استخدام الوسائل الحديثة فى الدباغة) .
- ٨ — وأكل ضَبّ . وقد كره الرسول ﷺ أكله وبعض النفوس تعافه وإن كان حلالا .
- ٩ — وصيد دُب .
- ١٠ — وصِرْفُ حَبّ بأرض خرس (أى لا تنبت) . (أى حَبّ صِرْف خالص نقى) .
- ١١ — ونفخ نار (وما فيه من التعرض لها ولدخانها) .
- ١٢ — وحملُ عار .
- ١٣ — وبيع دار بربع فلّس .
- ١٤ — وبيع حُفّ (والمشى حافيا) .
- ١٥ — وعدم إئف (فقد الأليف) .
- ١٦ — ضرب ألف بحبل قلّس (حبل غليظ من جبال السفن) .

العلم مَعْرِسُ كُلِّ فخر

من الوصايا الغاليات لعبد الملك بن مروان :

يا بَنِيّ ، تعلموا العلم ؛ فإن كنتم سادةً فُتُّم ، وإن كنتم وسطا سُدِّم . وإن كنتم
سُوقَة عِشْم .

وقالوا : أعطِ العلمَ كلكَ يُعْطِكَ بعضه ، وأعطه بعضك لا يعطيك شيئاً .

وهنا يلتقى الإمام الشافعي مع هاتين الوصيتين فيقول :

- ١ - الْعِلْمُ مَغْرَسٌ كُلُّ فَخْرٍ فَافْتَخِرْ
وَاحْذَرْ يَفُوتُكَ فَخْرُ ذَاكَ الْمَغْرَسِ
- ٢ - وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ يَنَالُهُ
مَنْ هَمُّهُ فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسٍ
- ٣ - إِلَّا أَخُو الْعِلْمِ الَّذِي يُعْنَى بِهِ
فِي حَالَتِهِ عَارِيًّا أَوْ مُكْتَسَبِي
- ٤ - فَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ مِنْهُ حِطًّا وَافِرًّا
وَاهْجُرْ لَهُ طِيبَ الرُّقَادِ وَعَبَسِ
- ٥ - فَلَعَلَّ يَوْمًا إِنْ حَضَرْتَ بِمَجْلِسٍ
كُنْتَ الرَّئِيسَ وَفَخْرَ ذَاكَ الْمَجْلِسِ

مع النص :

خير ما يفتخر به الإنسان العلم ، وكيف لا وهو كالأرض الطيبة التي تضم بين جنباتها ألواناً مختلفة من الغرس ، أو هو الأشجار المتنوعة التي يغرسها الإنسان فتثمر ويُسْتَظَلُّ بظلها حقاً إن العلم « مَغْرَسٌ كُلُّ فَخْرٍ » .

ونيل العلم بالفرغ له ، فمن كان همه في غيره من مطعم أو مشرب فليس يناله .
إن أحبا العلم الذي يُعْنَى به هو الذي يناله سواء كان عرياناً أو مكتسبياً فذلك لا يشغل باله وما دام الأمر كذلك فاقبل على العلم واهجر من أجله لذيق النوم وجد ولا تهزل لتنال أوفر حظ . ومن يدري فربما أصبحت ممن يشار إليهم :
موضع التقدير والاحترام .

شهادة حَقِّ

كان للإمام الشافعي خصومه ، فتراه حريصاً على أن يكشف للناس عن عقيدته ومذهبه .

لقد رموه بالرفض ، ويردّ : ما الرفض ديني ولا اعتقادي !

إن الرافضة فرقة من الشيعة قالوا لزيد بن علي :

« ابرأ من الشيخين نقاتل معك » فأبى ، وقال :

« كانا وزيرى جدّى ﷺ فلا أبرأ منهما » ؛ فتركوه وارضوا عنه !

ولكن الشافعي هنا يشهد بوحدانية الله ، ويؤمن بالبعث ، وأن الإيمان قول وعمل طيب ، والعمل قد يزيد وينقص ، ومن هنا يتفاوت الناس في الثواب .

ويؤمن بأن الخلفاء الأربعة أئمة المسلمين يُهتدى بهداهم ولا تُنتقص أقدارهم ، وفتح الله من يتنقصهم ولحاه . أرأيت كيف كان صادقاً حين قال :

« ما الرفض ديني ولا اعتقادي !! » ؟

فتعال نقرأ ما كان يُنشده في هذا الشأن :

١ - شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ

وَأَشْهَدُ أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ وَأَخْلَصُ

٢ - وَأَنَّ عُرَى الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُبَيَّنٌّ

وَفِعْلٌ رَكِيٌّ قَدْ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ

٣ - وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَبِّهِ

وَكَانَ أَبُو حَفْصٍ عَلَى الْخَيْرِ يَحْرُصُ

٤ - وَأَشْهَدُ رَبِّي أَنَّ عُثْمَانَ فَاضِلٌ

وَأَنَّ عَلِيًّا فَضْلُهُ مُتَخَصِّصُ

٥ - أئمة قوم يُهتدى بهداهم
لحى الله من إياهم يتقص

نور الله لا يهدى لعاص

إن قلب العاصي مظلم .. مُعلّق لا يستقبل نور الله ، ولا يتقبله ! والعلم نور من الله ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين !
والسعيد السعيد من أعطاه الله لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً !
وإمامنا الشافعي أتم حفظ كتاب الله وهو في السابعة ! وعندما عزم على الرحلة إلى مالِك استعار موطأه وحفظه في تسع ليالٍ !
إنه يعود بنا إلى نقطة البداية .. فيحدثنا عن شكوى إلى أستاذه بالعراق وكيع . ونصيحة أستاذه له ، وهي مهداة إلى طلاب العلم في كل مكان !

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي
يا رواد العلم في كل مكان ، طهروا أنفسكم ، قبل أن تقبلوا على ساحة العلم ،
فالعلم نور من الله .. وقولوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا !
وتذكروا أن العلم كالكير ينفي خبثه !!

ض

قافية الضاد

عادة الأيام

العاقل من كان بعيد النظر ، يفكر في العواقب ، ويعمل للمستقبل حساباً ..

يأخذ من شبابه لهرمه ، ومن غناه لفقره ، ومن دنياه لآخرفته !

وعندما تعطيه الأيام تنتظر منه أن يرد العطاء ويبدل من ذات نفسه ، وهو في قمة قدرته ، فالأيام تمضي ، ويأتي على الإنسان زمان يعجز فيه عن رد ما أقرضته الأيام ! إن قرض حسن علينا أن نرده عند القدرة على الأداء !
والآيات دعوة إلى البذل والجود قبل فوات الأوان .

- ١ - إِذَا لَمْ تَجُودُوا وَالْأُمُورُ بِكُمْ تَمْضِي
وَقَدْ مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ الْبَسْطُ وَالْقَبْضُ
- ٢ - فَمَاذَا يُرْجَى مِنْكُمْ إِنْ غُرِلْتُمْ
وَعَصَّتْكُمْ الدُّيَا بِأَيَّابِهَا عَصًا
- ٣ - وَتَسْتَرْجِعُ الْأَيَّامُ مَا وَهَبْتُمْ
وَمِنْ عَادَةِ الْأَيَّامِ تَسْتَرْجِعُ الْقَرْضُ

وقفه مع الآيات :

ونعود فتساءل :

هل هناك أمل فيمن عزل أو نكب أن يكون أهلاً للعطاء ؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه !

وإذا بخل من يقدر على البذل وتملك أيديهم المال فمن يعطى ؟
على كل منا أن يسأل نفسه : ماذا أعطيت ؟ قبل أن ينسى ما أخذ !!

حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ

بعد وفاة مالك خرج الشافعي إلى اليمن فولّى عملاً من طرف واليها ، ولكن من كان مثله في استقامته ونزاهته ، لا يقبل بحال أن يفض الطرف عما يقع في الوسط الذي يعمل فيه من اغتصاب وارتشاء دون محاولة لتغيير المنكر .

وهكذا كان الشافعي يتصدى للدفاع عن حق المظلوم ، ولا يتردد في مجابهة رجل السلطة بما في سلوكه من مخالفة للعدل .

وهذا الموقف من الشافعي دفع خصومه إلى التآمر ضده ، فاتهموه بالتشيع ، وبأنه يقدم المساعدات للمناهضين للدولة من الشيعة ، ويدعو إلى مبايعة أحد العلويين ، ورفعت هذه التهمة إلى الخليفة هارون الرشيد ؛ فأمر بجلب الشافعي إلى بغداد لا ستنطاقه^(١) ، فحمل الإمام إلى عاصمة الخلافة حوالى سنة ١٨٤ هـ . ولما مثل أمام الرشيد استطاع أن يبرئ نفسه مما اتهم به ، فعفا عنه ، وقربه منه معجباً بشخصيته العلمية .

إنه يحب آل البيت وليس كل من أحب آل البيت رافضياً

ويحدثنا الربيع بن سليمان فيقول :

سمعت الشافعي يقول في حجه إلى مكة الآيات الآتية ، فما كان يصعد شرفاً ، ولا يهبط وادياً إلا أنشأ :

يأراكبا ...

وَاهْتَفِ بِقَاعِدِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ	يَا رَاكِباً قَفْ بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مَنَى
فَيْضاً كَمَلَّتْ طِمَ الْفُرَاتِ الْفَائِضِ	سَحَرًا إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مَنَى
فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أُنَى رَافِضِي	إِنْ كَانَ رَفُضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ

[حلية الأولياء ومعجم الأدباء]

وقفه مع النص :

يقصد الحجاج مَنَى عند الفجر (السحر) من اليوم الثامن من ذى الحجة فيمكثون فيها إلى طلوع شمس اليوم التالي ، حيث يقصدون عرفة ، وإليها يفيض الحجاج من

(١) مساءلته واعترافيه .

عرفة بعد غروب شمس اليوم التاسع حيث يمشون بها يوم العيد الأكبر وأيام التشريق ، ويرمون الجمرات (بالمحصب) بعد مبيتهم بالمزدلفة ليلة العاشر .

وفيها مسجد الخيف وترى الحجاج هناك بين قاعد وناهض والشاعر يعلنها صريحة في هذا الجمع الطاهر المؤمن إنسه وجنّه :

إِنْ كَانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أَتَى رَافِضِي !

ع

قافية العين

أَحِبْ وَلَا أَحِبْ !

لو سئلت : من أولئك الذين تحبهم من الناس ؟ ومن أولئك الذين تكرههم ؟ فماذا يكون جوابك ؟!

إن الحب في الله ، والكراهة في الله من صفات المؤمنين المتقين !!

والإمام الشافعي يحيب في تواضع العلماء ؛ لكيلا يزكى نفسه ، فيقول :
أحب الصالحين ولست منهم !

وهو يرجو أن يكون هذا الحب شفيعاً له عند الله فمن أحب قوماً حشر معهم ، ومن السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله اثنان تحاباً في الله .

وهو يكره من يتاجرون في المعاصي ويجعلونها بضاعتهم ولو كانوا مثله ، وهكذا المؤمن يحب الحق ويتقبله ممن جاء به من صغير أو كبير وإن كان بعيداً ، ويرد الباطل ويكرهه ممن جاء به من صغير أو كبير وإن كان قريباً أو قريباً .

أَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةً
وَأَكْرَهُ مَنْ تَجَارَرْتُهُ الْمَعَاصِي وَلَوْ كُنَّا سِوَاءَ فِي الْبِضَاعَةِ

فن النصيحة !

النصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين واجب كل مسلم ! .
ولكن قد ننصح فلا نجد آذاناً صاغية ، ولا قلوباً واعية ، فتدخل النصيحة من
أذن لتخرج من الأذن الأخرى !!

فما الذى يضمن للنصيحة القبول ؟

إن من نصح أخاه سراً فقد نصحه وزانه !

ومن نصحه جهراً فقد فضحه وشانه !

فعلينا أن نتجنب النصيحة لمن نريد وهو في جماعة ؛ فإن ذلك نوع من التوبيخ ،
ولا يلومن الناصح إلا نفسه إذا لم يجد إلا الرفض والنفور والخروج على الطاعة !
فيأياها الآباء ، ويأياها المدرسون ويا من يهمهم الأمر ، إن النصح على انفراد كفيلا
بتحقيق المراد ! يقول إمامنا الشافعى :

تَعَمَّدَنِي بِنُصْحِكَ فِي إِفْرَادِي وَجَبَّيْنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النَّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
وَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهُ

متى نشتغل بعيب أنفسنا
عن عيوب الآخرين ؟!

من شأن المؤمن الورع ألا تكون له جرأة على ارتكاب ما حرم الله ؛ فهو يتحرج
ويتوقى عن المحارم ، وما يزال يترق في درجات الورع حتى يُكَلَّفَ عن الحلال المباح .
ومن كان ورعاً اشتغل بعيبه عن عيوب الناس ، فلا يرى إلا عيب نفسه .

ومثله مثل المريض الذى شغله وجعه عن وجع الناس .

إن الحديث عن عيوب الآخرين وسيلة لإخفاء عيوب النفس ، إلى ما فيها من غيبة حرم الله ممارستها ، ولا تكاد تجد اثنين إلا وقد اتخذوا من ثالث موضوعاً للحديث فمتى نكف عن هذه العادة ، ونعرف واجبنا تجاه الآخرين وتجاه أنفسنا إن كنا حقاً عقيلاء ورعين ؟!

الْمَرْءُ إِنْ كَانَ عَاقِلًا وَرِعًا أَشْعَلَهُ عَنْ غُيُوبِ غَيْرِهِ وَرَعُهُ
كَمَا الْعِيلُ السَّقِيمُ أَشْعَلَهُ عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَجَعُهُ

إرادة النفع

كان محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبى النعمان قد بلغ عند الرشيد مبلغاً جليلاً ، وكان إماماً من أئمة فقه الإمام أبى حنيفة ؛ فكتب إليه الشافعى :

لَسْتُ أَدْرِى مَاذَا أَقُولُ وَلَكِنْ أَبْتَغِى مِنْ عَرِيضِ جَاهِكَ نَفْعًا
وَالْفَتَى إِنْ أَرَادَ نَفْعَ أَخِيهِ فَهُوَ أَدْرِى فِي أَمْرِهِ كَيْفَ يَسْعَى !

[عين الأدب والسياسة ووين الحب والرياسة]

وقفه مع النص :

بعد أن ثبتت براءة الشافعى مما نسب إليه أمام هارون الرشيد ، عفا عنه وقربه منه معجباً بشخصيته العلمية .

وفى هذه الفترة كان أكثر اتصاله برجلين أخذ عنهما ، كما أخذوا عنه .

أولهما — محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبى حنيفة وصاحبه الذى آلت إليه رئاسة المذهب الحنفى بعد أبى يوسف .

وثانيهما — أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي والمجتهد الكبير وكان مذهب الشافعي في هذا الجزء من حياته هو مذهب الإمام مالك بن أنس .
ولعلك تقف على ما كان يريده الشافعي من محمد الشيباني .

لمن نعطي رأينا ؟

إن رأينا — إن صدق — هو خلاصة تجاربنا .. لم نحصل عليه إلا بعد صبر ومعاناة وسهر وإعمال فكر ، فجدير به ألا يعطى إلا إلى من هو في أمس الحاجة إليه .. من يعرف قيمته .. من يقدره .. من يهتم به .. من يجد فيه ضالته المنشودة .
أما أولئك المعرضون الذين لا يريدون منا رأيا فمن الخطأ أن نقدم لهم الرأي .
قال حرمله :

سمعت الشافعي يُنشد :

ولا تُعْطَيْنَ الرَّأْيَ مَنْ لَا يُرِيدُهُ فلا أنت محمود ولا الرأي نافعُه

[آداب الشافعي ومناقبه ص ٢٧٦]

ويا لها من نصيحة غالية .
لكل الذين يؤذنون في « مألطة » .
ولكل الذين ينفخون في « قرية مقطوعة » .
وينسون أن من يقدمون له الرأي قد وُطِّنَ نفسه على أن يكون له « أذن من طين وأذن من عجين » !!

الذُّلُّ في الطَّمْعِ !

قالوا : العلم خير من المال ، فبالعلم يمكننا الحصول على المال ، وليس بالمال يمكننا الحصول على العلم .

ومن آتاه الله علماً نافعاً فحسبه ما أعطاه الله ، وعليه أن يرضى . وليقل : جل
من قَسَمَ الحظوظ !

فالناس هذا حظـه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق

وعليه أن يعيش عزيزاً بالعلم ، ولا يذل نفسه للحصول على المال ، فكم أذل
الحرص والطمع أعناق الرجال !

إن على الإنسان أن يراقب ربه ، ويرجع إليه ، ولا يفرح بالطفرة والمكسب
السريع ليعلو شأنه على غير أساس ومهما كانت وسيلة الكسب ؛ فما طار طائر
وارتفع إلا كما طار وقع !

وهكذا ينبغي أن نراجع أنفسنا ؛ لنعيش على أرض الواقع بدلاً من التحليق في دنيا
الأحلام والأوهام والأطماع التي ليس لها دوام .

**حَسْبِي يَعْلَمِي إِنَّ تَفْعَ مَا الـذُّلُّ إِلَّا فِي الطَّمَعِ
مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ رَجَعْ مَا طَارَ طَيْرٌ وَارْتَفَعْ
إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعْ**

سِهَامُ الدُّعَاءِ !

إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ..

ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب !!

إنها سهام نفاذة لا تُتَّقَى بدروع ؛ تلاحق الظلوم حتى يُنتَقَمَ منه للمظلوم ، ولن
يفلت منها !

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

إن الإسلام تعبد ، واعتراف لله بالعبودية ، والله يغار إذا انتهكت حرمة عبده .

والإسلام اتصال دائم بين العبد وربه ومناجاة ودعاء ، وقد طلب الله من عباده أن يُقبلوا عليه بالدعاء في السراء والضراء ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ .

والإمام الشافعي يحكى لنا إحدى تجاربه مع الظالمين ، فيقول :

وَرُبَّ ظَلُومٍ قَدْ كُفِيتْ بِحَرْبِهِ فَأَوْقَعَهُ الْمَقْدُورُ أَى وَقُوعٍ
فَمَا كَانَ لِي الْإِسْلَامُ إِلَّا تَعْبُدًا وَأَدْعِيَةً لَا تُتَّقَى بِدُرُوعٍ
وَحَسْبُكَ أَنْ يَنْجُو الظُّلُومُ وَخَلْفَهُ سَهَامٌ دُعَاءٍ مِنْ قِسَى رُكُوعٍ
مُرِيْشَةً بِالْهَذَبِ مِنْ كُلِّ سَاهِرٍ مُنْهَلَةً أَطْرَافُهَا بِدُمُوعٍ

وقفه مع النص :

إنه يقول : كم من ظلوم لا طاقة لى بحربه كفانى الله شره ، فوقع فى يد المقدور ، وحل به المخذور !

إن الإسلام حصن لصاحبه ، وأدعية المسلم لا يفلت الظلوم منها مهما تحصن بدروع وغيرها .

ويكفى أنه عندما يشعر بالنجاة فلن يفلت من سهام الدعاء .. إنها تظل تلاحقه حيث تنطلق من الراكعين الساهرين الباكين .

وكما ينطلق السهم سريعاً عندما يركب عليه الريش من قسوى مُنْحَنِيةً على هيئة الهلال ، فكذلك تنطلق الدعوات من أفواه الراكعين مريشة بأهداب عيونهم الساهرة تتساقط من أطرافها. دموع المظلومين ، فويل ثم ويل للظلوم الذى جاوز حده فى ظلمه ، فإن الله مع المظلوم حتى يُردَّ إليه حَقُّه .

الحب الصادق

ما أكثر الذين يدعون حُبَّ الله ، ويُظهرون ذلك أمام الناس !

ولو تَحَلَّوْا إِلَى أَنْفُسِهِمْ بِادْرُوا بِالْعَصِيَان !!

إِنْ ذَلِكَ لَيْسَ حَبًّا .. بَلْ هُوَ أَدْعَاءُ كَاذِبٍ وَخَدَاعٌ ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ،
فَإِنَّ الْمَحَبَّ لِمَنْ يَحِبُّ يَطِيعُ ، وَمُحَالٌ أَنْ تَجْتَمَعَ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَعَصِيَانُهُ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ .
إِنْ نَعَمَ اللَّهُ تَغْمِرُنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَلَكِنَّا لَا نَسَارِعُ إِلَى شُكْرِهِ !
إِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَقِفَ وَقْفَةً مَعَ أَنْفُسِنَا نَسْأَلُهَا : هَلْ نُحِبُّ اللَّهَ حَقًّا وَصَدَقًا ؟!

إِنْ عَلَامَةُ هَذَا الْحُبِّ الصَّادِقِ الطَّاعَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ الْفَوْرِيَّةِ :

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَّيْدِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لَشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

المفتي المكي

جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي قوله :
بلغني أن رجلا جاء الشافعي برقعة فيها :

سَلِ الْمَفْتَى الْمَكِّيَّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ إِذَا اشْتَدَّ وَجَدٌ بَامْرِيءَ مَاذَا يَصْنَعُ ؟

قال : فكتب الشافعي تحته :

يُدَاوِي هَوَاهُ ثُمَّ يَكْتُمُ وَجْدَهُ وَيَصْبِرُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَيَخْضَعُ

فأخذها صاحبها وذهب بها :

ثم جاءه وقد كتب تحت هذا البيت الذي هو الجواب :

فَكَيْفَ يُدَاوِي وَالْهَوَى قَاتِلُ الْفَتَى وَفِي كُلِّ يَوْمٍ غُصَّةٌ يَتَجَرَّعُ ؟!

فكتب الشافعي — رحمه الله تعالى :

فَإِنَّ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ فَلَيْسَ شَيْءٌ سِوَى الْمَوْتِ أُنْفَعُ !!

وقفه مع النص :

يقول ابن القيم :

وأما الوجد فهو الحب الذى يتبعه الحزن ، وأكثر ما يستعمل الوجد فى الحزن .
وإطلاق الوجد على مجرد مطلق المحبة غير معروف وإنما يطلق على محبة معها فقد
يوجب الحزن !

«وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء، وإنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه!»
وإذا وصلت بصاحب الهوى الحالة إلى تجرع الغصص وذوق المر ، ولم يجد فى
الصبر ملاذا فالموت أنفع له !

القناعة والطمع

إذا استغنى الإنسان عما فى أيدي الناس ، وقنع بما أعطاه الله فقد ملك نفسه ولم
يعد عبداً لأطماعه وملاذه !

إنه عندئذ يصبح حراً حقاً !

أما العبد فهو الذى استعبده أطماعه وتخلّى عن القناعة ولم يرض بما قسم الله له .
فعلى الإنسان أن يقنع ويرضى بما قسم الله له ولا يقنع ويخضع لشهواته وأطماعه ؛
فلا يشين الإنسان ويعيبه إلا الطمع .

قال الشافعى :

العبد حرٌّ إن قَنِعَ والحرُّ عبدٌ إن طَمِعَ
فاقنع ولا تقنع فلا شيءٌ يشين سوا الطمع

ف

قافية الفاء

يحدثنا التاريخ عن نماذج عالية رفيعة من الصداقة الحقة التى ستظل عنواناً على

التضحية والفداء ، والحب والصفاء والأمانة والوفاء ، وصدق الوعد ، والإنصاف المتبادل بين الأصدقاء .

ويسلط الإمام الشافعي الأضواء على مدعى الصداقة ويرشدنا إلى أنه لا خير فيهم ، وقدima قال أحد الشعراء :

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفـعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك
فمن أولئك الذين لا خير فيهم ، وعلى الدنيا السلام إذا لم تضم إلا أمثالهم ؟
يقول الإمام الشافعي :

١ - إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفاً

فدغره ولا تكثر عليه التأسفا

٢ - ففي الناس أبدال وفي الترك راحة

وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا

٣ - فما كل من تهواه يهواك قلبه

ولا كل من صافيته لك قد صفا

٤ - إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة

فلا خير في ود يجيء تكلفا

٥ - ولا خير في خل يخون خليله

ويلقاه من بعد المودة بالجفا

٦ - ويكر عيشاً قد تقادم عهده

ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا

٧ - سلام على الدنيا إذا لم يكن بها

صديق صدوق صادق الوعد منصفا

إن الإمام الشافعي من أسرة شريفة تتمسك بالقيم ؛ ولهذا نراه يحدثنا دائماً عن :
المودة الخالصة ، والصدق ، والوفاء ، والشرف ، والأمانة ، وغيرها من الكلمات
التي تكاد تنقرض ، حتى أن شاعرنا العربي القديم يزي المستحيلات ثلاثة : الغول ،
والعنقاء ، والخيّل الوفيّ ، ترى ماذا يقول الشافعي ؟

وقفة مع النص :

وفي الأبيات الأربعة الأولى يحدثنا عن الودّ المتكلف ، والصفاء الخادع والصدقة
الزائفة .. إن أمثال هؤلاء غير مأسوف على تركهم بل إن في تركهم راحة ، وهناك
البديل ، وعلينا أن نروض أنفسنا بالصبر .

وهناك حقيقة ينبغي أن نعيها ألا وهي : ليس كل من نهواه يهوانا ولا كل من
نصافيه الود يصافينا ، والصفاء والود من عمل القلب فإذا لم يكن طبيعة فلا خير
فيمن يتكلفون الود ، ويضحكون على غيرهم حتى يحصلوا على مآربهم .

ثم يقول :

لا خير فيمن يخون خليله .

لا خير فيمن ينقلب على صديقه بالعداوة من بعد المودة .

لا خير فيمن ينكر عيشاً قد مضت عليه سنون .

لا خير فيمن يذيع الأسرار الخافية .

لا خير في هؤلاء جميعاً ولا في دنيا تجمعهم إذا لم يكن هناك صديق صادق الوعد
منصفاً .

ولهذا نراهم يقولون : اختر الصديق قبل الطريق ! ولا عجب إذا لجأ أحدهم إلى
الله قائلاً : اللهم احمني من أصدقائي !!

رأى إمام في إمام !!

كان لأبي حنيفة النعمان منحيّ اجتهدى خاص تمكن بفضلله من تزعم مدرسة أهل

الرأى فى العراق ، فركزها ، ووضع لها أسساً واضحة أنضجت الفقه العراقى ، وأوفت به على الغاية .

وبعد حياة حافلة بالعلم وبث المعارف ، والاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية لقي ربه عام ١٥٠ هجرية ودفن ببغداد فى مكان يعرف اليوم بالأعظمية .

وليس هناك من هو أعرف بأبى حنيفة وبمنزلته من الإمام الشافعى عالم قريش الذى ملأ الأرض علما .

إن الأبيات الآتية نقرأ فيها نبل العلماء ، وتواضعهم وصفاء قلوبهم ، وسمو أخلاقهم ، وذكر المرء بما هو أهل له .

وسوف تقول حين تقرأوها : حقا لقد كان للشافعى من كرم الأصل ما يصونه عما يدنس العرض ، وينحرف بصاحبه عن طريق الخلق القويم . ويجعله يعرف للعلماء قدرهم وحقهم عليه ، ألا تراه يقول :

- | | |
|--|--|
| ١ - لَقَدْ رَأَى الْبِلَادَ وَمَنْ عَلَيْهَا | إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ أَبُو حَنِيفَةَ |
| ٢ - بِأَحْكَامٍ وَأَثَارٍ وَفَقِهِ | كَأَيَاتِ الزُّبُورِ عَلَى الصَّحِيفَةِ |
| ٣ - فَمَا بِالْمَشْرِقَيْنِ لَهُ نَظِيرٌ | وَلَا بِالْمَغْرِبَيْنِ وَلَا بِكُوفِهِ |
| ٤ - فَرَحْمَةُ رَبِّنا أَبَدًا عَلَيْهِ | مَدَى الْأَيَّامِ مَا قُرِئَتْ صَحِيفُهُ |

إن حياة الأئمة الأربعة مدرسة وعلينا أن نتابع خطاهم ونقرأ ما كتب عنهم .

كيف الوصول ؟!

ما أكثر الذين هاموا بحب الله والوصول إلى رضاه .

إنها مرتبة دونها تضحيات وعقبات فكيف الوصول إلى من نهواه جل فى علاه .
ودونه جبال عالية القمم (القلل) .

ودونه أخطار وُحُوف (منايا وموت) .

والرَّجُل حافية .

وليس هناك مُركب ..

وهو صفر اليدين .

والطريق مُحوف .

فكيف الوصول ؟

- ١ - كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سَعَادَ وَذَوْنَهَا
قُلُوبُ الْجِبَالِ وَذَوْنُهُنَّ حُوفُ
- ٢ - وَالرَّجُلُ حَافِيَةٌ وَلَا لِي مَرْكَبٌ
وَالْكَفُّ صِفْرٌ وَالطَّرِيقُ مُحُوفٌ

وسوف تسألني عن « سعاد » .. إنها رمز للمحبوب .. والحب الأكبر هو حب الله .. ويا شقاءنا إذا لم يمنحنا ربنا رضاه مهما قدمنا وجاهدنا .

الذُّبَابُ وَالْعُقَابُ

عجيب أمر الدنيا ، وتفاوت الحظوظ فيها فبينما نجد الطيور الجارحة ذات المخالب القوية وعلى رأسها العُقَاب لا تأكل إلا الجيف في القلوات والصحارى إذا بالذباب — نموذج الضعف — يجنى الشهد !!

العُقَاب يأكل الجيف المستتة ، والذباب يجنى الشهد والعسل ! إنها نظرة في عالم الطير ، وتأملات إمام من الأئمة ..

إن الشافعي يقول :

أَكَلَ الْعُقَابُ بِقُوَّةٍ جِيفَ الْفَلَا وَجَنَى الذُّبَابُ الشَّهْدَ وَهُوَ ضَعِيفٌ

ولله في خلقه شؤون !

ألا ترى أن البعوضة تنال من دم الأسد ويعجز عن أن يقتص لنفسه منها
وما بالناس نذهب بعيداً والقرآن يقول فيمن يغترون بقوتهم من الناس : ﴿ وَإِنْ
يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَفْزِهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ ﴾ [الحج - ٧٣]
ألا ما أضعف الأقوياء !!

ذئَابٌ فِي ثِيَابٍ مَتَسَكِّينَ

ما أكثر المخادعين ! الذين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم .
وكثيراً ما نرى الثعالب تظهر في شعار الواعظين ، وتمشي في الأرض تهدي
وتسب الماكرين .

فينبغي أن نفتح عيوننا لألاعيبهم .

مَخْطِئٌ مِنْ ظَنِّ يَوْمٍ أَنَّهُ لِلثَّعَلِ دِينًا

إن علينا أن نتركهم .

وهناك ذئاب بشرية تتظاهر بالطيبة حتى إذا حَلَّوْا إلى أنفسهم ظهروا على
حقيقتهم ، وراحوا يأكلون أموال الناس بالباطل ، وكأنهم ذئاب خرجت من حقافها
(جحورها في الرمل) .

وكثيراً ما ائتمنا أمثال هؤلاء المتظاهرين بالعفة والتسك والعبادة ، فلما أتيحت
لهم الفرصة انقضوا في غير رحمة على الأموال والأعراض !

حدث عبد الله بن جعفر ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن يعقوب ، حدثنا
أبو حاتم ، حدثنا حرملة قال : سمعت الشافعي يقول :

١ - وَدَعَ الدِّينَ إِذَا أَتَوْكَ تَسَكُّوْا

وَإِذَا حَلَّوْا فَهُمْ ذِئَابُ خِرَافٍ

فَضْلُ التَّغْرِيبِ

قديمًا قال شاعرنا العربي :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يَرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ : عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ

يُضْرَبُ الْجِمَارُ وَيَهَانُ ؛ فِيرَضَى بِالذَّلِّ ، وَيَقِيمُ عَلَى الضَّيْمِ !

وَيُضْرَبُ الْوَتْدُ فَوْقَ أُمِّ رَأْسِهِ ؛ لِيَزْدَادَ تَمَكُّنًا فِي الْأَرْضِ الَّتِي دُقَّ فِيهَا !
وَيَقِيمُ عَلَى الضَّيْمِ .

وَسَوْفَ يُسْأَلُ الْمُسْتَضْعِفُونَ الرَّاغِبُونَ بِالضَّيْمِ وَالذَّلِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

فِيمَ كُنْتُمْ ؟

قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ !!

فَيَقَالُ لَهُمْ :

أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجَرُوا فِيهَا ؟

وَالشَّافِعِيُّ يَدْعُو إِلَى الْإِرْتِحَالِ مِنْ أَرْضٍ يَضَامُ فِيهَا الْإِنْسَانُ وَيُذَلُّ . وَيُضْرَبُ مِثْلًا
بِالْعَنِيرِ الْحَامِ وَبِالْكُحْلِ كَيْفَ كَانَا قَبْلَ أَنْ يَتَغَرَّبَا عَنْ مَوَاطِنِهِمَا ؟ وَكَيْفَ أَصْبَحَا بَعْدَ
التَّغْرِيبِ ؟

إِنَّ الْعَنِيرَ قَبْلَ أَنْ تَسْتَخْلَصَ مِنْهُ الرَّائِحَةُ الزَّكِيَّةُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ، بَلْ كَانَ أَشْبَهَ
بِرُوثِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَالْكُحْلُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا حَجَرًا مِنَ الْأَحْجَارِ ، فَأَصْبَحَ الْعَنِيرُ يَتَسَابَقُ
الْجَمِيعُ إِلَى حَمْلِهِ عَلَى الْأَعْنَاقِ ، أَمَّا الْكُحْلُ فَيَحْمَلُ فِي الْعَيُونِ ! وَذَلِكَ لَمَّا تَغَرَّبَا !

ارْجُلُ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا

وَلَا تُكُنْ مِنْ فَرَاقٍ لِأَهْلٍ فِي حَرْقٍ

فَالْعَنِيرُ الْحَامُ رَوْثٌ فِي مَوَاطِنِهِ

وَفِي التَّغْرِيبِ مَحْمُولٌ عَلَى الْعُنُقِ

وَالْكُحْلُ نَوْعٌ مِنَ الْأَحْجَارِ تَنْظُرُهُ
 فِي أَرْضِهِ وَهُوَ مَرْمِيٌّ عَلَى الطُّرُقِ
 لَمَّا تَعَرَّبَ حَازَ الْفَضْلَ أَجْمَعَهُ
 فَصَارَ يُحْمَلُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْحَدَقِ
 أَيُّهَا أَلَدُّ ؟

للناس فيما يعشقون مذاهب !
 منهم من يجد لذته في طلب العلم والتأليف والتنقيح . ومنهم من يلذ له وصل غانية
 وطيب عناق !
 ومنهم من لا يعرف النوم ، فليس لمن رام العلم مضجع ! ومنهم من يبيت ليله
 لا يفكر في شيء ، ولا يشغله شيء ينعم بلذيق النوم والكسل ! وإن فاته قطار
 العلم !!
 فهل يستوى الساهرون في طلب العلم والنائمون عنه ؟
 يقول الشافعي :

- ١ - سَهْرَى لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلَدُّ لِي
 مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ
- ٢ - وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى صَفَحَاتِهَا
 أَحْلَى مِنْ الدُّوْكَاءِ وَالْعُشَّاقِ
- ٣ - وَأَلَدُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُقِّهَا
 نَقْرِي لِأَلْقَى الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِ
- ٤ - وَتَمَائِلِ طَرَباً لِحُلِّ عَرِيصَةٍ
 فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ

٥ - وَأَبِيتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَثَبَّتُهُ

نَوْمًا وَتَبَغَّى بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي !؟

إن هذا لن يكون .. فلا يستوى من سهر الليالى ومن نامها !
ومن أجل هذا نرى الشافعى يجد لذة فى تنقيح الكتب وتهذيبها وإصلاحها ، أكثر
من معاشرة الجميلات الغانيات اللاتي استغنين بجمالهن عن الزينة .
وإن صرير أقلامه وأصواتها فوق صفحات كتبه وهو يصنف ويؤلف أحب إليه
وأحلى من أصوات العشاق عندما يكون لقاء واختلاط وإن نقره على الأوراق لإزالة
ما علق بها من أثرية ألد وأحلى عنده من نقر الفتاة لدفنها (آلة طرب ينقر عليها)
وإن تمايله فى الدرس — كما يفعل الفقهاء — ذات اليمين وذات الشمال أو إلى الأمام
والخلف لحل مسألة عويصة أشهى من الخمر عند شاربها .

دليل على القضاء وحكمه

الناس صنفان : مجدود صاحب جَدِّ وحظ ، ومحروم ، وقديما كنا نحفظ بيتا من
لامية الطغرأتى يقول :

الجَدِّ فى الجَدِّ والحِرمان فى الكسل
فانصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غايةَ الأمل

إن الجَدِّ هو الحظ ، ولا يأتى الحظُّ من فراغ ولكنه يصاحب الجَدِّ والتعب .
ويقال لصاحب الحظ مجْدُود .

وكما أن لكل مجتهد نصيب ، فإن الحرمان فى الكسل !
فالسما لا تمطر ذهباً أو فضة للكسالى الخاملين . ولكن الدنيا قد تقبل على بعض
العاملين فينالون منها حظاً وافراً ومكانة مرموقة ! فإذا صادفك من أقبلت عليه الدنيا
وأسعدته الحظ ، فلا تعجب وقل :

مَلِكُ الْمَلِكِ إِذَا وَهَبَ لَا تَسْأَلُنَّ عَنْ السَّبَبِ
إن الإمام يقول :

١ - فَإِذَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَجْدُوداً حَوَى

عُوداً فَأَثْمَرَ فِي يَدَيْهِ فَصَدَّقِ

٢ - وَإِذَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَحْرُوماً أَتَى

مَاءً لِيَشْرَبَهُ فَعَاظَ فَحَقَّقِ

٣ - لَوْ كَانَ بِالْحَيْلِ الْغِنَى لَوْجَدْتَنِي

بِنُجُومِ أَقْطَارِ السَّمَاءِ تَعْلُقِي

٤ - لَكِنَّ مَنْ رُزِقَ الْحِجَا حَرَمَ الْغِنَى

ضِدَّانَ مُفْتَرَقَانِ أَيْ تَفَرُّقِ

٥ - وَأَحَقُّ خَلْقِ اللَّهِ بِالْهَمِّ أَمْرُؤُ

ذُو هَمَّةٍ يُنَلِّى بِرُزْقِ ضَيْقِ

٦ - وَمَنْ الدَّلِيلُ عَلَى الْقَضَاءِ وَحْكُمِهِ

بُؤْسُ اللَّيْبِ ، وَطِيبُ عَيْشِ الْأَحْمَقِ

٧ - إِنَّ الَّذِي رُزِقَ الْيَسَارَ فَلَمْ يَنْلِ

أَجْراً وَلَا حَمَداً لَغَيْرُ مُوَفَّقِ

٨ - وَالْجَدُّ يُدْنِي كُلَّ أَمْرٍ شَاسِعٍ

وَالْجَدُّ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُعْلَقِ

إن إمامنا يرى أن الحظ له دخل كبير في حياتنا ، لكنه ينهنا إلى وجوب النزول عند حكم القضاء والرضا به .

حفظ الأسرار

لكل إنسان منا أسرارها الخاصة التي يؤذيه أن يطلع عليها غيره ، وبخاصة أعداؤه

الذين يريدون التَّيْلَ مِنْهُ ، وإذاعة ما خفى من أمره .
 وقلوبنا مستودع أسرارنا ، إن اتسعت لها ظلت سرا بيننا وبين ربنا عالم الأسرار
 علم اليقين . والله حلیم ستار !
 وإن ضاقت صدورنا بأسرارنا أو أسرار غيرنا ، أصبحت على كل لسان ! ومن
 الحماقة أن نلوم غيرنا على إذاعتها ؛ لأننا لم نستطع أن نحفظ بها !
 وفي الحكم :

« سُركَ أسيرُك ، فإذا تكلمت به فأنت أسيرُهُ »

ولقد سأل أحد رجال الدين قائداً من قواد الحرب العظمى عن سرِّ حرى .
 فتظاهر القائد بالتفكير ثم قال له :

لو أخبرتك بالسر ، هل تستطيع أن تحتفظ به ولا تذيعه ؟
 فأجاب رجل الدين : نعم .

فقال القائد على الفور : وأنا الآخر أستطيع أن أحتفظ به .
 ويحدثنا الإمام الشافعى عن تجربته فيقول :

١ — إذا المرءُ أفشى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ
 وَلَمْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فَهُوَ أَحْمَقُ

٢ — إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سِرِّ نفسه
 فصَدُرَ الذى يُستودَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ

ماذا بقى من أخلاق الناس !؟

لقد فطر الله الناس وطبعهم على الخير .

وفى التاريخ الإسلامى نماذج عُليا للأخلاق الرقيقة والقيم النبيلة .
 وعلى مرَّ الأيام تفسد الطباع ، وتنقرض صفات وقيم ! وعندما تختلط بالناس
 لا نجد إلا المكر ، والتلق .

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

إنهم زهر حين نراهم ونتأملهم ونرمقهم ، فإذا جربناهم وخالطناهم واحتكنا بهم لم نجد فيهم إلا شوكا .

فكيف نعاملهم إن دعت الضرورة إلى معايشتهم ومعاشرتهم والتعامل معهم ؟

تقول الأمثال : « من لم يتذأب أكلته الذئاب » !

ويقولون : « عاشر الذئاب على أن تكون فأسك في يدك » !

ويقول الإمام الشافعي : « كن جحيما لعل الشوك يحترق » !

ومن قبل قالوا : « إن أنت أكرمت اللئيم تمرد » !

واجه أمثال أولئك اللقام ولسان حالك يقول : « إن كنت ربحا فقد لاقيت

إعصارا » .

وتذكر قول الشافعي :

لَمْ يَنْقُ فِي النَّاسِ إِلَّا الْمَكْرُ وَالْمَلَقُ

شَوْكٌ ، إِذَا لَمَسُوا ، زَهْرٌ إِذَا رَمَقُوا

فَإِنْ دَعَاكَ ضَرُورَاتُ لِعَشْرَتِهِمْ

فَكُنْ جَحِيمًا لَعَلَّ الشَّوْكَ يَحْتَرِقُ

مشاعر الغريب !

عاش الشافعي الغربية في العراق .. واليمن .. ومصر .. وكثيراً ما يحنُّ الغريبُ إلى

موطنه ، ويخفق قلبه شوقاً إلى لقاء الأهل ، ألم يقل شاعرنا العربي :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يُعانيها ؟!

والغريب له مشاعره وأحاسيسه ..

إنه يخاف كأنه سارق !

ويرى خاضعاً كأنه مدين أثقله الدين ، والدين هم بالليل وذل بالنهار .

وَيُرَى ذَلِيلًا كَأَنَّهُ أُسِيرَ أَوْثَقُوهُ وَقِيدُوهُ بِالْحَبَالِ وَالسَّلَاسِلِ .
وتظل هذه المشاعر تستولى عليه حتى يتذكر أهله وبلاده ، فيخفق فؤاده كجناح
طير خافق ، وتهب على قلبه نسيمات حلوة وذكريات جميلة تنسيه ما هو فيه ،
وما يعانيه !

إن إمامنا يقول :

إِنَّ الْعَرِيبَ لَهُ مَخَافَةٌ سَارِقٍ وَخُضُوعٌ مَدْيُونٍ وَذِلَّةٌ مُوثِقٍ
فَإِذَا تَذَكَّرَ أَهْلَهُ وَبِلَادَهُ فَفُؤَادُهُ كَجَنَاحِ طَيْرٍ خَافِقٍ
وأراك تقول :

يا بلادى أنت قُرّة عيني !!

التوكل على الله

هناك قوم يخطئون فهم التوكل على الله ؛ فهم لا يعملون ويقولون : توكلنا على
الله .

ومنهم الطالب الذى لا يذكر ، ويقول : توكلت على الله .
ومنهم المسافر الذى لا يتخذ الوسائل ولكنه يخاطر ويقول : توكلت على الله .
ومنهم الزارع المهمل الذى لا يسقى زرعه ولا يحسن رعايته ويقول : توكلت
على الله !!

هؤلاء كلهم اتكاليون متواكلون وليسوا بمتوكلين !

إن التوكل الحق على الله اتخاذ للأسباب ، وسعى فى الأرض ، وبذل للجهد مع
طلب التوفيق من الله ؛ فالله هو الرزاق الذى قسم رزق الخلائق ، وما دام الإنسان
قد أَدَّى واجبه فليُحسن الظن بربه فإنه لن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها ،
ولا ينبغي أن تذهب النفس حشرات أسفاً على ما فات !

وإليك ما قاله الشافعى :

١ - ثَوَكَلْتُ فِي رِزْقِ عَلَى اللَّهِ خَالِقِي

وَأَيَّقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَكَّ رَازِقِ

٢ - وَمَا يَكُ مِنْ رِزْقٍ فَلَيْسَ يَفْوُتُنِي

وَلَوْ كَانَ فِي قَاعِ الْبَحَارِ الْعَوَامِقِ

٣ - سَيَأْتِي بِهِ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِفَضْلِهِ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي اللِّسَانُ بِنَاطِقِ

٤ - فَفِي أَى شَيْءٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً

وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلَائِقِ؟!

ومن طريف ما جاء في كتاب « ثمرات الأوراق » أن شاعرا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء فقال له :

ألست القائل :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي أن الذى هو رزق سوف يأتيني
أسعى له فيعنينى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعينى^(١)

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره متوجهاً إلى الحجاز .

فلما كان الليل تذكر هشام وهو في فراشه أنه رده خائبا ، وهو الشاعر الذى معه لسانه ، فلما أصبح سأل عنه ؛ فأخبر بانصرافه ؛ فقال : ليعلم أن الرزق سوف يأتيه ، وأرسل إليه ألفى دينار مع رجل من رجاله ، فأعطاه المال : فقال له : أبلغ أمير المؤمنين أنى سمعت فلم أظفر بحاجتى ، ورجعت إلى بيتى فأتانى رزقى !

هل يرتبط الرزق بالعقل ؟

(١) الإشراف : التطلع إلى المال والطمع فيه ، ويعنينى يجهدنى .

نرى البهائم ترزق ، ولا عقل لها .
ونرى من العباقر من عاش مُر الحيد وذئبا !
فهل الأرزاق تجري على العقل والجحج ؟
يقول شاعر عربى :

لو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائم !
وقد يقف العاقل وقفةً مع نفسه ، ويطيل التأمل فيمن حوله ويخرج من تجربته
بحقيقة نعيشها نحن ونلمسها ، وفي معرفتها والإحاطة بها ما يربح النفس من عناء
التفكير .

ثرى ماذا يقول الشافعى ؟

لو كُنت بالعقل تُعطى ما تريد إذن
لما ظفرت من الدنيا بمـرزوق
رُزقت مالا على جهـل فعشت به
فلست أول مجنون ومـرزوق !!

ولله فى خلقه حكم !
وجل من قسّم الحظوظ !

العلم رفيق نافع

قالوا : « العلم فى الصدور لا فى السطور » !

والعالم الحق هو الذى يملأ العلم قلبه لا خزائن كتبه .

ولا فائدة فى علم لا يستثمره صاحبه فى مواقف الحياة أنى سار وحيثما اتجه .

فلقد ظل أحد المشايخ القدامى يدرس لطلابه كيفية الحج ، وأن تحية المسجد

الحرام تختلف عن تحية المساجد كلها ..

فنحن نحى المساجد بصلاة ركعتين .

ونحى المسجد الحرام بالطواف حول الكعبة المشرفة . لكن شيخنا حين أتيح له الحج ودخل المسجد الحرام ، وقف يصلى ركعتين تحية المسجد ، فسمع طفلة صغيرة تقول له : تحية مسجدنا الطواف .

والشافعى من العلماء الذين جعلوا قلوبهم للعلم وعاء فهو يقول كما روى عنه الربيع بن سليمان فى أدب الدنيا والدين ، ومنهاج اليقين :

عِلْمِي مَعِيَ حَيْثُمَا يَمُتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِ
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِيَ
أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

وأراك تقول : لاقية للعلم إذا لم نطبقه فى كل مجالات الحياة ، ولا قيمة للتدين إذا لم يصبح سلوكاً !

الصدىق الجاهل !

قديمًا قالوا : عدو عاقل ، خير من صديق جاهل !
وذلك لأن العاقل يحسن التصرف ، أما الجاهل فقد يضرك من حيث يريد أن ينفعك .

إن « الذبّة » التى أرادت أن تذبّ الذباب عن وجه صاحبها لكيلا يؤذيه وهو نائم ، فألقت حجراً ، فأصاب الحجر صاحبها فقتله — خير مثل لما يريد الشافعى أن يقول فى البيت الآتى :

رام نفعاً فضرّ من غير قصدٍ ومن البرّ ما يكون عُقُوقاً

[وفيات الأعيان — دائرة معارف التّحقيق العشرين]

ومن الناس من يروم ويقصد أن ينفعك — كما يصرّ له جهله — فيؤذيك ؛ لأنه

لا يكاد يفرق بين ما ينفع وما يضر .

وقد يخيل إلى بعضهم أنه يبر والديه ويحسن إليهما حين يقدم لهما ما يشتهيانه من
المنوعات ، ولو فكر لعلم أنه كان مسيئاً إليهما وعاقاً لهما فمن البر ما يكون
عُقُوقاً .

وعلينا أن نحسن التصرف ، ونعرف جوانب الخير فنفعلها ، والشر فنتركها .

ك

قافية الكاف

القناعة رأس الغنى

القناعة رأس الغنى .. فالغنى غنى النفس عما فى أيدي الناس !

ومن يرى هذا ويؤمن به يتمسك بأذيال القناعة ، فلا تراه على باب فلان من
الناس ، ولا ينهمك بأمور فلان من الناس ، وكيف ذلك وقد استغنى عنهم ؛ فصار
غنياً بلا درهم ، يمز عليهم شبه ملك .

إنه التعفف الذى مدحه القرآن :

﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ [البقرة - ٢٧٣]

يقول إمامنا :

رَأَيْتُ الْقَنَاعَةَ رَأْسَ الْغَنَى	فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا مُمْتَسِكٌ
فَلَا ذَا يَرَانِي عَلَى بَابِهِ	وَلَا ذَا يَرَانِي بِهِ مُنْهَمِكٌ
فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلَا دِرْهَمٍ	أَمْرٌ عَلَى النَّاسِ شِبْهُ الْمَلِكِ

من تجارب الإمام الشافعى

يرى إمامنا أن يعتمد الإنسان فى حل أموره على نفسه فهو أدرى الناس بشأنه ،
فصاحب البيت أدرى بما فيه .

وليس من عاين المشكلة كمن عاناها !

ومن تجاربه : أنه ينبغي عند طلب حاجة أن نقصد من يعرفون لنا قدرنا وبعترفون بفضلنا .

إنه يقول :

١ — مَا حَكَّ جِلْدَكَ مِثْلَ ظُفْرِكَ فَتَوَلَّ أَنْتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ

٢ — وَإِذَا قَصَدْتَ حَاجَةً فَاقْصِدْ لِمَنْ تَعْرِفُ بِفَضْلِكَ

[شذرات الذهب]

وقفة متأملة :

إلى الكسالى الخاملين .. وإلى القاعدين ، وغيرهم يعمل من أجلهم .. اعتمدوا على أنفسكم .. وجربوا مرة بعد أخرى .. فإذا عجزتم فلا تلجئوا إلا إلى من يعرف لكم قدركم ويعترف بفضلكم ، حتى يأخذوا بأيديكم ، ويعملوا على إنجاح مساعيكم .
تولوا أموركم الخاصة بكم فلقد رأينا دول الغرب — أخيراً — ترفع شعاراً هو :
« اخدم نفسك بنفسك » ونحن نستورده منهم في المطاعم والأسواق التجارية .
أليست هذه بضاعتنا ردت إلينا ؟!

فتنة عظيمة !!

يرى الشافعي أن وجود صنفين من الناس مصدر شر خطير وفتنة كبرى عظيمة لمن يتمسك بهما في دينه .

أما أولهما — فعالم متهتك لا يعمل بعلمه ويخامر بالمعاصي .. وأما الثاني — فجاهل مُتَنَسِّك .

وعلينا ألا نخدع بهما وبأمثالهما في ديننا ، وأن نتقى الله عندما نصبح في موضع القدوة ، فلا نأمر بالخير بينما نتركه ، ولا ننهى عن الشر بينما نفعله !

وقد أنشد الشافعى — رضى الله عنه — فى فساد العالم المتهتك والجاهل المتنسك قوله :

- ١ — فساد كبير عالم متهتك وأكبر منه جاهل متنسك
٢ — هما فتنة فى العالمين عظيمة لمن بهما فى دينه يتمسك

وكم أضيرت أمتنا بأمثال هؤلاء على مدى عصورها فكانوا معاول هدم ، وعوامل تخلف !

فليحذر شرهم أولئك الذين ييغون النجاة عند ربهم والسلامة يوم القيامة !

قافية اللام ل

المثل الأعلى للفقير والرئيس والغنى

إنهم ثلاثة : إذا صلحوا صلحت الدنيا ، وإذا فسدوا فسدت الدنيا وساءت أحوال الناس :

أما أولهم فالفقير . والفقير من تفقه فى دين الله ووطن نفسه لخدمة دينه . ويرى الشافعى أن الفقير الحق بفعله لا بنطقه ومقاله ؛ فالإيمان عقيدة وعمل ، ولا خير فى قول لا يتبعه عمل !

والثانى الرئيس : إن الرئيس بأخلاقه .. بسلوكه ، فالملك خير الملوك من ملك الناس وامتلك نفسه ، ومن يخشى الله ، ويخشى الناس بأسه . إنه بعدله .. بسيرته ، لا بقومه ، وحزبه ، ورجاله .. فما أضيع الذين يعتمدون على رجالهم وحزبهم دون أن يعملوا حساباً لسلوكياتهم !

أما الثالث — فهو الغنى — والغنى بحاله .. بما يتحلى به من الجود والبذل ، وكرم النفس ، والبعد عن الجشع ، والتفاخر ، والتباهى . فليس الغنى بالملك والمال

وإنما بالبذل والعطاء والنوال .

وهكذا يرى الشافعى ما ينبغى أن يكون عليه كل من هؤلاء الثلاثة :

- ١ - إِنَّ الْفَقِيهَ هُوَ الْفَقِيهَ بِفَعْلِهِ لَيْسَ الْفَقِيهَ بِنُطْقِهِ وَمَقَالِهِ
- ٢ - وَكَذَا الرَّئِيسُ هُوَ الرَّئِيسُ بِخَلْقِهِ لَيْسَ الرَّئِيسُ بِقَوْمِهِ وَرَجَالِهِ
- ٣ - وَكَذَا الْغَنِيُّ هُوَ الْغَنِيُّ بِحَالِهِ لَيْسَ الْغَنِيُّ بِمُلْكِهِ وَبِمَالِهِ

صُنِ النَّفْسَ عَمَّا يَشِينُهَا

نفسك التى بين جنبيك أمانة فى يديك أودعك الله إياها وكرمها وقال لنا : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس - ٩ ، ١٠]

والإمام الشافعى يطلب من كل مؤمن ما يأتى :

أن يصون نفسه ، ويحملها على ما يزينها ويزكيها .

ويحدثنا عن أثر ذلك فى حياة من يعمل بهذه النصيحة ثم ينتقل بنا إلى ما ينبغى أن نواجه به الناس حتى ولو جفا خليل ، أو تخلت عنا الأيام .

ثم يرسم لنا الطريق : ماذا نفعل إن ضاق رزق اليوم ؟ ولماذا ؟ ويبدى رأيه فى « الإامعة » الذى يميل مع الريح وليس له مبدأ ويأكل على كل مائدة ، وينتسب إلى كل حزب ، ويهتف لكل حاكم .

ثم يقرر رأيه فيما يراه من الإخوان حوله . إنه يقول :

١ - صُنِ النَّفْسَ وَاحْمِلْهَا عَلَى مَا يَزِينُهَا

تَعِشْ سَالِمًا وَالْقَوْلُ فَيْكَ جَمِيلُ

٢ - وَلَا تُؤَلِّينَ النَّاسَ إِلَّا تَجْمُلًا

نَا بِكَ دَهْرٌ ، أَوْ جَفَاكَ خَلِيلُ

٣ - وَإِنْ ضَاقَ رِزْقُ الْيَوْمِ فَاصْبِرْ إِلَى غَدٍ

عَسَى نَكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ

- ٤ - وَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ امْرِئٍ مُتَلَوِّنٍ
إِذَا الرِّيحُ مَالَتْ ، مَالَ حَيْثُ تَمِيلُ
- ٥ - وَمَا أَكْثَرَ الْإِخْوَانَ حِينَ تُعَدُّهُمْ
وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ

إن ذلك هو حال الدنيا ؛ فلا تبتئس بما يكون منهم وقت الشدة !!

تواضع العلماء

خزائن العلم لا تنفذ ، ومن اعتقد أنه علم فقد جهل !

وكلما قرأ الإنسان جديداً أحس بما كان عليه من نقص ، وراح يستزيد من العلم ليكمل نقصه ، وهكذا يكون شأن العلماء المتواضعين ؛ فهم أعرف الناس بأقدارهم ، والدهر خير مؤدب ، ومن لم يؤديه أبواه أدبته الأيام والليالي ، أتدري ماذا يقول الإمام الشافعي ؟

كَلَّمَا أَذْنِبِي الدَّهْرُ أَرَانِي نَقْصَ عَقْلِي
وَإِذَا مَا اَزْدَدْتُ عِلْمًا زَادَنِي عِلْمًا بِجَهْلِي

دعوة إلى التعلم

وهذه الأبيات الثلاثة دعوة موجهة إلى كل مسلم أن يتعلم ، فلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وبالجهل يصير الكبير صغيراً مهما كانت حوله جيوش كثيفة .
وبالعلم يصبح الصغير كبيراً في أعين الجامع والمحافل من الناس . إنه يقول في هذه

الدعوة :

- ١ - تَعْلَمَ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوَلَّدُ عَالِماً
وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
- ٢ - وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ
صَغِيرٌ إِذَا التَّفَتَّ عَلَيْهِ الْجَحَافِلُ
- ٣ - وَإِنَّ صَغِيرَ الْقَوْمِ إِنْ كَانَ عَالِماً
كَبِيرٌ إِذَا رُدَّتْ إِلَيْهِ الْمَحَافِلُ

[عين الأدب والسياسة]

وإذا كانت جيوش الأمة تزحف على البلاد وتزداد نسبتها عاماً بعد عام، فإن في ذلك الخطورة كل الخطورة ! فياويل أمة يسود الجهل فيها !

إدراك الحكمة ونيل العلم

مَنْ ذَلِكَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْرِكَ الْحِكْمَةَ ؟

وَمِنْ هَذَا الَّذِي يُمْكِنُهُ أَنْ يَنَالِ الْعِلْمَ ؟

وَهَلْ لِمَنْ بُلِيَ بِالْفَقْرِ وَالْعِيَالِ مِنْهُمَا نَصِيبٌ ؟

إِنْ كُنْتَ حَرِيصاً عَلَى مَعْرِفَةِ الْإِجَابَةِ فَتَعَالِ نَقْرَأْ مَا قَالَهُ الشَّافِعِيُّ :

- ١ - لَا يُدْرِكُ الْحِكْمَةَ مَنْ عُمُرُهُ
يَكْدَحُ فِي مَصْلَحَةِ الْأَهْلِ
- ٢ - وَلَا يَنَالُ الْعِلْمَ إِلَّا فَتَى
حَالٍ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالشُّغْلِ
- ٣ - لَوْ أَنَّ لِقَمَانَ الْحَكِيمِ الَّذِي
سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَانُ بِالْفَضْلِ
- ٤ - بُلَى بِفَقْرٍ وَعِيَالٍ لَمَا
فَرَّقَ بَيْنَ التَّبَنِ وَالْبَقْلِ

[منهاج اليقين والكشكول]

إن الحكمة تطلق على كل ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل ، والحكيم ذو الحكمة ، أو من يحكم الأشياء ويتقنها ، ولقد قالوا :

اعط العلم كلك يعطك بعضه
واعطه بعضك لا يعطيك شيئاً

ومن هنا كان التفرغ والهجرة في طلب الحكمة وإدراك العلوم .

إياك وأبواب الملوك والحكام !

قالوا : السلطان من لا يعرف باب السلطان .

ويحدثنا القرآن عن رأى ملكة سبأ في الملوك :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [٣٤ / نمل]

والملك : ذو السلطان والسيادة على فريق من الناس . وجمع الملك ملوك .

والفساد : الجذب في البر ، والقحط في البحر ، ونقيض الصلاح .

وللإمام الشافعى تجربته في هذا المجال . وإن كان من الملوك من عرف الله وخافه .

تُرى بم وصفهم ؟ وعم ينهانا ؟ ولماذا يقطع على الآمل فيهم أمله ؟ وبم يصون الإنسان كرامته ؟

تجد الإجابة الشافية عن كل هذه التساؤلات في أبيات ثلاثة للشافعى :

١ - إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُمَا حَلُّوا

فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَبْوَابِهِمْ ظِلٌّ

٢ - مَاذَا تُؤْمَلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا

جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ مَلُوا

٣ - فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ كَرَمًا

إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلٌّ

وأراك تقول : لا أمل في معرفة من إذا غضب جار وظلم ، ومن إذا رضى ملّ
وسئم !

إن الوقوف على أبوابهم ذل ، أما باب ملك الملوك ففيه متسع للجميع حيث
لا ظلم ولا ملل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾

حُبّ أبى بكر وعلى

رضى الله عنهما

عجيب أمر خصوم الشافعى في اليمن !

لقد دفعتهم الخصومة إلى التآمر ضده ، فاتهموه بالتشيع والرفض !

وهنا يرد عليهم ويرميهم بالجهل كاشفاً عن رأيه وعقيدته .

١ - إذا نحن فضّلنا علماً فإننا

روافضُ بالفضليل عند ذوى الجهل

٢ - وفَضَّلْ أبى بكر إذا ما ذكرته

رُميتُ بنصبٍ عند ذِكْرِى للفضل

٣ - فلا زلت ذا رفضٍ ونصبٍ . كلاهما

بِحُبِّيهِمَا حَتَّى أَوْسَدَ فى الرَّمْلِ

إن خصومه — بجهلهم — يآبون إلا اتهامه ، فإن فَضَّلَ عليا رموه بالرفض ، وإن
فَضَّلَ أبابكر رموه بالنصب .

وهذا دأبهم لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب وسيظل موقفهم حتى يوسد
فى القبر ، فلن ينزل عند رأيهم ولن يوافق هواهم .

آل بيت رسول الله ﷺ

فتح الشافعى عينيه على الأرض المقدسة منزل الوحي حيث مبعث رسول الله ﷺ

وهو يهذى بخطاه الحائرين يوم أن كانت الأرض ضالما حوله .

وفي المدينة المنورة تلقى العلم على يد الإمام مالك ، حيث كانت المدينة مهد العلم ، وموطن عدد كبير من التابعين ، وقبلة علماء المسلمين ، ومُهاجر رسول الله ﷺ ومثواه ، ومنزل الوحي وملتقاه ، فلا عجب أن يرى حب آل البيت فرضاً عليه .

ألم يقل الله :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. فَتَرَبَّصُوا ﴾ [التوبة : ٢٤]

﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣]

ألم يرو البخاري .. أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : « اللهم صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كما صَلَّيت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كما بَارَكْتَ على آل إبراهيم إِنَّكَ حميد مجيد » .

إنه يناجيهم قائلاً :

١ - يَا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حُبُّكُمْ

فرض من الله في القرآن أنزله

٢ - يَكْفِيكُمْ مِنْ عَظِيمِ الْفَخْرِ أَنْكُمْ

مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لَا صَلَاةَ لَهُ

ما أحدثه الناس من بدع !

جاء في البداية والنهاية لابن كثير :

قال الربيع : سمعت الشافعي يقول :

أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ :

أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي .

وعن الربيع قال :

أنشدنى الشافعى :

١ - لم يفتأ الناسُ حتى أحدثوا بدعاً

فى الدين بالرأى لم يُبعث بها الرُّسلُ

٢ - حتَّى استَحَفَّ بِحَقِّ الله أَكْثَرُهُمْ

وفى انذى حَمَلُوا مِنْ حَقِّهِ شُعْل

[البداية والنهاية]

عُلُوُّ الذِّكْرِ

الناس صنفان : شقى وسعيد .

نرى السعيد يحظى بما يريد ، ويعلو شأنه وذكره ويصبح بين الناس الرمز والنموذج
وإليه تنسب كل الفضائل حتى يزین بالذى لم يفعل !

وياويل الشقى مما ينسبه الناس إليه ، كل الجرائم والشور تنسب إليه ، فيسوء
ذكره ، ويصبح النموذج الكامل للشر ليكون فى مقابلة نموذج الخير .
وهكذا يكون علو الذكر :

١- المرءُ يَحْظَى ثُمَّ يَعْلُو ذِكْرُهُ

حَتَّى يُزَيِّنَ بِالَّذِى لَمْ يَفْعَلِ

٢ - وَتَرَى الشَّقَى إِذَا تَكَامَلَ عَلَيْهِ

يَشْقَى وَيُنْحَلُ كُلُّ مَا لَمْ يَفْعَلِ

ويروى البيت الثانى هكذا :

وترى العنَى إِذَا تَكَامَلَ مَالُهُ يُحْشَى وَيُنْحَلُ كُلُّ مَا لَمْ يَفْعَلِ

المعاملة بالمثل

يقولون : إن الحماسة أعيت من يداويها ، وكيف يُدَاوَى من قَلَّ عقله وساء تصرفه ؟!

والحل المعاملة بالمثل ، فهناك شاعر عرني يقول :

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظنَّ أني جاهل

وقد جرت بين الشافعي وبعض أصحابه مَجَانة : (قلة حياء) وذلك عند قدومه من مكة إلى مصر فخرج إخوان له يتلقونه ، فإذا بأحدهم يؤذيه بكلمة فيقول :

١ - وَأَنْزَلْنِي طُولَ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ

إذا شئتُ لاقيتُ امرأً لَا أَشَاكِلُهُ

٢ - أَحَامِقُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ

ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله

[معجم الأدباء ، وحلية الأولياء]

وأراك تقول :

في الغربة وطول البعد عن الأهل والنوى يتعرض الإنسان للقاء من هم ليسوا على شاكلته ؛ فيضطر إلى محامقتهم (مقابلة حماقتهم بمثلها) . أما من كان عاقلاً فيعاقله .

وأقول لك : إن البيت يُروى هكذا :

تحمّلتُه حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله

حاسدُ النعمة

كثيراً ما يتعرض الفقهاء والعلماء لحاسدى ما هم فيه من نعمة ، وما لهم من

منزلة !

وشأن العلماء أن يداروا أعداءهم ، ولا يبادلوهم عداء بعداء ، ولا يهبطوا إلى مستواهم لعل حالهم ينصلح !

أما الحسود فيرى الإمام الشافعى صعوبة مداراة الحسود لقد دارى الإمام كل الناس وتحملهم وكان يدفع السيئة بالحسنة ، فإذا الذى بينه وبينه عدواة كأنه ولى وصديق حميم ، أما هذا الحسود فلم يفلح معه علاج !
تُرى لماذا ؟

اقرأ البيتين تجد الإجابة :

١ - وَدَارَيْتُ كُلَّ النَّاسِ لَكِنَّ حَاسِدِي

مُدَارَاتُهُ عَزَّتْ وَعَزَّ مَنَالُهَا

٢ - وَكَيْفَ يُدَارِي الْمَرْءُ حَاسِدَ نِعْمَةٍ

إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا

وأراك تقول : إن (مداراة الناس) : ملاطفتهم وملاينتهم والرفق بهم من أهم العوامل في اتقاء شرهم ، وفيها توفير للجهد والوقت وجمع الشمل ، ولهذا يقول الشاعر :

فدارهم مادمت في دارهم وأرضهم مادمت في أرضهم

لكن الحسود لا يرضيه إلا زوال نعمتى فكيف أداريه وأرضيه ؟!

الفضل للذى يتفضل

جاء في حلية الأولياء عن الربيع بن سليمان قال :

قال الشافعى :

١ — عل كُلِّ حالِ أنتَ بالفضلِ آخِذٌ

وما الفضلُ إلا للذى يَتَفَضَّلُ

وقفه مع البيت :

إن الفضل هو الإحسان ابتداءً بلا علة ، فإذا أعطى الإنسان من ذات نفسه فهو ذو فضل .

والفضل عطاء مستمر في جميع حالات الإنسان وتحركاته وقد رأينا عندما أفسح أبو بكر مكاناً لعلی بجوار رسول الله ﷺ سرَّ رسول الله ﷺ وقال :
« لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل » .

وإنما يتمايز الناس بسبقهم ومبادرتهم وتفضلهم ، فالفضل لمن تفضل وأعطى .

ذل الحياة وهول الممات

قال رضى الله عنه :

١ — ذُلُّ الحياة وهولُ المماتِ كُلاًَّ وجدناه طعماً ويلاً

٢ — فإن كان لا بُدَّ إحداهما فمشياً إلى الموت مشياً جميلاً

وأراك تقرأ البيتين وتقول :

لا خير في حياة ذليلة يتجرع الإنسان فيها كل يوم ألواناً من المهانة والقسوة والإرغام والجور ، ولا خير في حياة يتحمل الإنسان فيها ويقاسى أهوال الموت وصنوف العذاب .

كلاهما طعمه وبيل لا تتقبله النفس . والمشي إلى الموت أكرم على الإنسان من هاتين الحياتين !

قافية الميم

فضل العلم

توافرت للشافعي — رضى الله عنه — كل وسائل « العالم » كما توافرت له كل وسائل « الداعية » .

فقد أثر عنه أنه كان يذهب إلى الصّباغين يتساءل عن معاملتهم ، ويرتاد السوق يحدث أصحاب الحرف بعلمه ، ويفتيهم بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

ولقد وصل الشافعي بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين . فلقد وُضِلَ إليه فى المدينة علم « مالك » كله ؛ فقد لزمه حتى مات ، وفى بغداد وصل إليه علم « أبى حنيفة » كله بعد أن حمله محمد بن الحسن .. ومن ثم اجتمع له علمان : علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث .. ترى .. هل هناك خير من الشافعي يحدثنا عن العلم وفضله ؟ إنه يحدثنا عن رؤيته لصاحب العلم ، وموقف الكرام منه ، وأثر العلم فى حياتنا .. فتعال ننظر ما يقول :

- ١ — رَأَيْتَ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيمٌ
وَلَوْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِنَامُ
- ٢ — وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ
يُعْظَمَ أَمْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
- ٣ — وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ
كَرَاعِي الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
- ٤ — فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ رِجَالُ
وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ

وأراك تقول : إن العلماء ورثة الأنبياء ، وما من نبي إلا ورعى الغنم فالعالم راعٍ والناس رعيته يهديهم فيتبعونه كالسائمة (الماشية) التي تتبع راعيها ويألفها من منزلة !

المهلكات الثلاث

أقام الشافعي فترة بالبادية فلَقَنَ الفصاحة واستمد الخبرة والتجربة .
وكانت رحلاته مدرسة تعلم منها الكثير ودرس طبائع الناس وأخلاقهم وفهم الحياة وأسرارها وخفاياها ، وعرف المنجيات والمهلكات !
إنه يحصر المهلكات في ثلاث .. ثرى ما هن ؟
تعال نتعلم من الإمام :

- ١ - ثَلَاثٌ هُنَّ مُهْلِكَةُ الْأَنْامِ
وَدَاعِيَةُ الصَّحِيحِ إِلَى السَّقَامِ
- ٢ - دَوَامٌ مُدَامَةٍ وَدَوَامٌ وَطءٍ
وَإِدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ

وأراك تقرأ البيتين وتقول :

لقد صدق فالمدامة على المدامة (الخمر) مهلك للصحة والمال وقد قالوا : إنها أم الخبائث !

والإسراف في المعاشرة الزوجية يبدد الطاقة والجهد والنشاط ، ويستنزف نور عينيه ، ونخ ساقيه !

أما إدخال الطعام على الطعام فيسبب التخممة وهي رأس كل داء ، وقد قالوا :
البُطْنَةُ تذهب البُطْنَةُ .

وأراك تبحث في قاموسك عن (الأنام) و (السَّقَام) . وأراني أوفر عليك

الوقت فأضع المعنى بين يديك : الأنام : الخلق ، والسقام : المرض .

العلم بين المنح والمنع !

وصل الشافعى — رضى الله عنه بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين ، فارتفع عن أن يكون من أتباع « مالك » أو تلامذته الذين يجرون في حدود مذهبه . وهو الذى لازم مالكا إلى أن توفى سنة ١٧٩ هـ .

وبلغت به الثقة أن كان يعرف أن أهل مصر فرقان : فرقة مالت إلى قول مالك ، وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة .

ولكنه كان يقول فى حماسة ظاهرة :
« أرجو أن أقدم إلى مصر فاتيهم بشيء أشغلهم عن القولين جميعا » .

لقد حدث ما كان يتوقعه !
لكن كان ذلك مصدر الخلاف بينه وبين المالكية فى مصر فلقى عنتاً شديداً فتعال نتابع ما قاله الشافعى :

أخبر عثمان بن محمد العثمانى وحدث عنه أبو محمد بن حيان قال : حدثنا أبو على النيسابورى — ببغداد — حدثنى بعض أصحابنا أن محمد بن إدريس الشافعى لما دخل مصر أتاه جلّه أصحاب مالك وأقبلوا عليه فابتدأ يخالف أصحابه ثم أنشد قائلا :

١ — أَنَثَرُ دُرّاً بَيْنَ سَارِحَةِ الْبَهْمِ
وَأُظْمُ مَنْشُوراً لِرَاعِيَةِ الْعَنَمِ ؟

٢ — لَعَمْرَى لَئِنْ ضَيِّعْتُ فِي شَرِّ بَلَدَةٍ
فَلَسْتُ مُضِيْعاً فِيهِمْ غُرَرَ الْكَلِمِ

٣ — لَئِنْ سَهَّلَ اللَّهُ الْعَزِيزُ بِلَطْفِهِ
وَصَادَفْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحَكَمِ

- ٤ - بَشَتْ مُفِيداً وَاسْتَفَذْتُ وَذَاذَهُمْ
وَالَا فَمَكُونُ لَدَى وَمُكْتَمِ
٥ - وَمَنْ مَنَعَ الْجُهَالَ عِلْماً أَضَاعَهُ
وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ

[حلية الأولياء ، ومعجم الأدباء]

وأراك تقرأ هذه الآيات في أسى وحسرة :

إن الشافعى يتحسر ويتساءل مستنكراً ما ضاع من جهد ووقت وعلم لم يصادف أهله . وكما عبر القرآن : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ قال الشافعى عن مخالفه إنهم كسارحة البهم (عجماءات الضأن والمعز) . وليسوا إلا راعية غنم .

وإذا كان الشافعى قد ضيَّع ولم يُعرف له قدره ، فلن يضيَّع الحكم والعلم والدرر بين الجاهلين بقدره . حتى يصادف أهلاً للعلم فيثبهم ويستفيد ودهم وإلا فسوف يُبقى علمه محفوظاً لديه . مكنوناً فى صدره إذا لم يجد له أهلاً .
ويختتم الآيات بحكمة جديرة بالتأمل من العلماء والمدرسين :

من منح العلم للجهلة أضاعه ، ومن منع العلم عمن يستحقونه كان ظالماً وتعود فتقول :

ماذا كان مصير الشافعى فى مضر ؟

ويقول التاريخ : إن الخلاف لم يلبث أن نشب بين أتباعه وأتباع مالك فلقبه فتيان ابن أبى السمح المالكى ليلاً . فضربه أحدهم بمفتاح حديد فشجّه ، فلم يسعف بالعلاج فمات شهيد العلم .

عَفَوْا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ !!

إن المؤمن عفيف يكف نفسه عمالاً يحل أو يَجْمَل !
والحلال بين والحرام بين .

وأمام تدهور القيم الأخلاقية في ظل المذاهب المادية التي حصدنا بعض ويلاتها في سلوكنا الفردي والعام ، حتى أصبحت مصائرنا في مهب الرياح ؛ وعجالات « المادية » مازالت تدور ، ولم ينته كل الحصاد ... أمام هذا كله نجد أنفسنا في أمس الحاجة إلى من يذكرنا بالعفة فتعال إلى الشافعي :

- ١ - عَفَّوْا تَعَفَّ نِسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ
وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
- ٢ - إِنَّ الزَّناَ دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ
كَانَ الزَّناَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَأَعْلَمْ

وأراك تقول : « الزَّنا .. دَيْنٌ » .
وكلنا راع ومسئول عن رعيته ، فعلينا جميعاً أَنْ نتجنب ما لا يليق بمسلم ، وأن نكون قدوة حسنة .

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
فإذا انفلت زمام رب الأسرة فعلى الدنيا السلام !!

إذا كان رب البيت بالذِّف مولعاً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

الجود بالموجود !

لقد مات الشافعي فقيراً ولم يترك شيئاً يذكر !
والجميع يتحدثون عن سخائه وكرمه ، ويكفي دليلاً على ذلك أنه عندما أمر هارون الرشيد له بخمسين ألفاً فرقها على حجاب أمير المؤمنين وبواييه قبل أن يصل إلى الباب !
وقال الحميدي : قدم الشافعي — رحمه الله — من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف

دينار ، ف ضرب خبائه خارجاً من مكة ، فكان الناس يأتونه ، فما برح حتى فرقتها كلها .

وقال البويطى : كانت زبيدة ترسل إليه برزم الثياب والوشى فيقسمها بين الناس !

لقد كان ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .. لا يشكو إلا الله فاقته وفقره ، ومع هذا فيقول الربيع : كان الشافعى إذا سأله إنسان يَحْمَارُ وجهه حياء من السائل ، ويبادر بإعطائه .
ويحدثنا عن تجربته فى هذا المجال فيقول :

- ١ - أَجُودُ بِمَوْجُودٍ وَلَوْ بَتَّ طَاوِيًا
عَلَى الْجُوعِ كَشْحًا وَالْحَشَا يَتَّالِمُ
- ٢ - وَأَظْهَرُ أَسْبَابَ الْغِنَى بَيْنَ رِفْقَتَى
لِيَخْفَاهُمْ حَالِي وَإِنِّى لُمَعْدِمُ
- ٣ - وَيَبْنِى وَيَبْنِى اللَّهُ أَشْكُو فَاقْتَى
حَقِيقًا فَإِنَّ اللَّهَ بِالْحَالِ أَعْلَمُ

وأراك تقول : الطاوى : هو الذى يطوى بطنه على الجوع ، والكشح : ما بين الخاصرة والبصرة . والحشا : أحشاؤه وأمعائه ومعدته ، والفاقة : الفقر .

إلى من يقطعون حبال المودة !!

تتبع مصير الخارجين على القانون .

و نأمل حياة من يهتكون الحُرْم ، وينسفون جسور المودة بينهم وبين من يعايشونهم ؟

اهناك من يكرمهم ؟

أيسلمون من العقاب ؟

ونعيش لنرى الجزاء العادل ينزل بمن يستحقونه ولا يفلتون من العقاب ! وكثيراً ما نتوقف لنقرر حقيقة واقعة فنقول حقاً :

● من قتل يقتل !

● ومن يزني يُزَن به !

● ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها !

فعلى كل من يفكر في الشر ، وقبل أن تنزلق قدماه أن يسأل نفسه :

هل أنا كريم الأصل ؟ وهل أرضى أن يهتك أحد حرمتي ؟

فما بالي أرضى لغيري مالا أرضاه لنفسي ؟!

هل أنا منقاد لعقلي ؛ أم تقودني شهواتي ؟!

لابد أن أفهم الحقائق إن كنت ذا عقل !

١ - يَا هَاتِكَا حُرْمَ الرِّجَالِ وَقَاطِعَا

سُبُلَ الْمَوَدَّةِ عَشْتِ غَيْرَ مُكْرَمٍ

٢ - لَوْ كُنْتُ حُرّاً مِنْ سُلَالَةٍ مَاجِدٍ

مَا كُنْتُ هَتَاكَا لِحُرْمَةِ مُسْلِمٍ

٣ - مَنْ يَزِنُ يُزَنُ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ

إِنْ كُنْتُ يَا هَذَا لِيَا فَافْهَمْ

أنا عند رأيي

الشافعي — رضى الله عنه — كان صاحب رأى ، ولكنه كان يكره التعصب

وإملاء الرأى !

قال الأصمباني : حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا الحسين بن محمد بن غوث
الدمشقي قال : سمعت المزني يقول : كُلم الشافعي في بعض ما يراد منه فأنشأ
يقول :

وَلَقَدْ بَلَوْتُكَ وَابْتَلَيْتُ خَلِيقَتِي وَلَقَدْ كَفَّاكَ مُعَلِّمِي تَعْلِيمِي

[حلية الأولياء ، وآداب الشافعي]

إنه يقول : كلانا قد اختبر الآخر وابتلاه ، وعرف من أخلاقه ومبادئه ما قد كفاه
عن فرض رأيه عليه .

إنني على بينة من رأيك ، فكفأك تعليماً لي يا من تريد أن تعلمني ! فأننا عند
رأبي ، ولن أعمل برأيك !

مناجاة !!

كان الشافعي — رضى الله عنه — تَوَاقاً إلى أن ينعم بقرب الله ورضاه !
وكل أمله أن يذوق « شراب الأنس » الذي قيل فيه : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبِّهِمْ شَرَاباً
طَهُوراً ﴾ وهنا نراه يتوسل إلى الله أن يذيقه هذا الشراب :
بموقف ذلّه بين يديه .. بمخفى سره .. بإطراق رأسه .. باعترافه بذلّته .. بمديديه
يستمطر الجود .. بأسمائه الحسنی بالعهد القديم الذى أخذه الله على عباده .

١ — بِمَوْقِفِ ذُلِّ دُونَ عِزَّتِكَ الْعُظْمَى
بِمَخْفَى سِرٍّ لَا أَحِيطُ بِهِ عِلْماً

٢ — بِإِطْرَاقِ رَأْسِي ، بِاعْتِرَافِي بِذِلَّتِي
بِمَدِّ يَدِي ، أَسْتَمِطِرُ الْجُودَ وَالرَّحْمَى

٣ - بِأَسْمَائِكَ الْحَسَنِي الَّتِي بَعْضُ وَصْفِهَا

لِعِزَّتِهَا يَسْتَعْرِقُ النَّسْرَ وَالنَّظْمَا

٤ - بَعْدَ قَدِيمٍ مِّنَ أَلَسْتُ «بَرِّكُمْ؟»

بِمَنْ كَانَ مَكُونًا فَعَرِّفَ بِالْأَسْمَا

٥ - أَذِقْنَا شَرَابَ الْأَنْسِ يَا مَنْ إِذَا سَقَى

مُحِبًّا شَرَابًا لَا يُضَامُّ وَلَا يَظْمَا

وأراك تفتح المصحف على الآية رقم ١٧٢ من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ .. وتقول : هذا هو العهد القديم الذي أخذه الله من بني آدم .

وتبحث عن شراب الأنس وتجد الآية رقم ٢١ من سورة الإنسان : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يارب متعنا بقربك .

رَغْبَةُ عَبْدٍ فِي عَفْوِ اللَّهِ !!

لحظات الموت هي فترة الانتقال من دار أعمال إلى دار شِقْوَةٍ أو رشاد !

ثرى فيم يفكر القادم على ربه عند انتهاء أجله ، وماذا يدور بخلده ؟

حدث المزني وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى قال : دخلت على الشافعي في

مرضه الذي مات فيه فقلت :

كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقاً ، ولكأس

نبيّة شارباً ، وعلى الله جلّ ذكره وارداً ، ولا والله ما أدرى روحى تصير إلى الجنة أم

إلى النار ؟ ثم بكى وأنشأ يقول :

١ - إِلَيْكَ إِلَهَ الْخَلْقِ أَرْفَعُ رَغْبَتِي

وَأِنْ كُنْتُ يَا ذَا الْمُنِّ وَالْجُودِ مُجْرِمًا

- ٢ - وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَصَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لَعْفُوكَ سُلْمًا
- ٣ - تُعَاطِمَنِي ذُبِّي فَلَمَّتْ قُرْتُبُهُ
بِعَفْوِكَ رَى كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
- ٤ - فَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ
تُجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكْرُمًا
- ٥ - فَلَوْلَاكَ لَمْ يَصْمُدْ لِإِبْلِيسَ عَابِدٌ
فَكَيْفَ وَقَدْ أَغْوَى صَفِيَّكَ آدَمًا
- ٦ - فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَصِيرُ لِحَنَّةٍ
أَهْنَأُ ؟ وَأَمَّا لِلسَّعِيرِ فَأَنْدَمَا ؟ !
- ٧ - فَلِلَّهِ دُرُّ الْعَارِفِ التَّدْبِ إِنَّهُ
تَفِيضُ لِفَرْطِ الْوَجْدِ أَجْفَائُهُ دَمًا
- ٨ - يُقِيمُ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ ظِلَامَهُ
عَلَى نَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ مَائِمًا
- ٩ - فَصِيحًا إِذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّهِ
وَفِيمَا سِوَاهُ فِي الْوَرَى كَانَ أَعْجَمًا
- ١٠ - وَيَذْكُرُ أَيَّامًا مَضَتْ مِنْ شَبَابِهِ
وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْجَهَالَةِ أَجْرَمًا
- ١١ - فَصَارَ قَرِينُ الْهَمِّ طَوَّلَ نَهَارِهِ
أَخَا السُّهْدِ وَالتَّجْوَى إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمًا
- ١٢ - يَقُولُ : حَبِيبِي أَنْتَ سُؤْلِي وَبُعَيْتِي !
- ١٣ - أَلَسْتُ الَّذِي غَدَّيْتَنِي وَهَدَيْتَنِي
وَلَا زِلْتُ مَنَانًا عَلَيَّ وَمُنْعَمًا ؟ !

- ١٤ - عَسَىٰ مَنْ لَهُ الْإِحْسَانُ يَغْفِرُ رَأْسِي
وَيَسْتُرُ أَوْزَارِي وَمَا قَدْ تَقَدَّمَا
- ١٥ - تعاظمنى ذنبى فأقبلت خاشعاً
ولولا الرضا ما كنت ياربَّ مُنْعَمَا
- ١٦ - فَإِنْ تَغْفُ عَنِّي تَغْفُ عَنْ مَتَمَرِّدٍ
ظُلُومِ غَشُومٍ لَا يُزَايِلُ مَاثِمَا
- ١٧ - فَإِنْ تَنْتَقِمَ مِنِّي فَلَسْتُ بِأَيْسٍ
ولو أدخلوا نفسي بُجْرِمِ جَهَنَّمَا
- ١٨ - فَجُرْمِي عَظِيمٌ مِنْ قَدِيمِ وَحَادِثٍ
وعفوك يأقِي العبدَ أَعْلَى وَأَجْسَمَا
- ١٩ - حَوَالِي فَضْلُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
ونورٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَفْتَرِشُ السَّمََا
- ٢٠ - وفي القلبِ إِشْرَاقُ الْمُحِبِّ بِوَصْلِهِ
إذا قاربَ الْبُشْرَى وَجَازَ إِلَى الْحَمَى
- ٢١ - حَوَالِي إِيْنَاسٍ مِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ
يُطَالَعُنِي فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ أَنْجَمَا
- ٢٢ - أَصُونُ وَدَادِي أَنْ يُدَسَّسَهُ الْهُوَى
وأحفظُ عهدَ الْحُبِّ أَنْ يَتَلَمَّا
- ٢٣ - ففِي يَقْطِي شَوْقٌ وَفِي غَفْوَتِي مُنَى
تُلاحِقُ حُطُوى نَشْوَةٍ وَتَرْثَمَا
- ٢٤ - وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ يَسْلَمُ مِنَ الْوَرَى
وَمَنْ يَرْجُهُ هَيْهَاتَ أَنْ يَتَدَمَّا

وَأَرَاكَ تَقُولُ :

ما أجدرَ هذه الرغبة أن تكون على لسان كل مؤمن !

من فضل العلم

لا يعرف فضل العلم إلا الذين ذاقوا حلاوته وحملوا رايته .
وفي هذه الآيات الثلاثة يتحدث الإمام الشافعي عن فضل العلم لمن خدمه ..
تري ماذا يكون موقف الناس ممن يخدم العلم ؟
وماذا يجب على خادم العلم تجاهه ؟
وما رأى الإمام الشافعي فيمن حوى العلم ثم أودعه — بجهله — غير أهله ؟
تعال ننظر ما قال الشافعي مجيبا عن هذه الأسئلة :

- ١ — الْعِلْمُ مَنْ فَضَّلِهِ ، لِمَنْ خَدَمَهُ
أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ خَدَمَهُ
- ٢ — فَوَاجِبٌ صَوْنُهُ عَلَيْهِ كَمَا
يَصُونُ فِي النَّاسِ عِرْضَهُ وَدَمَهُ
- ٣ — فَمَنْ حَوَى الْعِلْمَ ثُمَّ أَوْدَعَهُ
بِجَهْلِهِ غَيْرَ أَهْلِهِ ظَلَمَهُ

استعارة الكتب

في العراق أتيح للشافعي أن يتصل بمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة
وصاحبه الذي آلت إليه رئاسة المذهب الحنفي بعد أبي يوسف .
وقد استعار الشافعي من محمد بن الحسن شيئا من كتبه فلم يسعفه به ، فكتب
إليه الشافعي رضى الله عنه :

- ١ — قُلْ لِلَّذِي لَمْ تَرَ عَيْنًا مِنْ رَأَاهِ مِثْلَهُ
- ٢ — وَمَنْ كَانَ مِنْ رَأَى هِ قَدْ رَأَى مِنْ قَبْلِهِ
- ٣ — لِأَنَّ مَا يَجْنِيهِ فَاقَ الْكَمَالَ كُلَّهُ

- ٤ - العلم يَنْهَى أَهْلَهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ أَهْلَهُ
٥ - لَعَلَّهُ يَنْذُرُهُ لِأَهْلِهِ لَعَلَّهُ

[مروج الذهب وشرح مقامات الحريري]

وأراك تقول :

نعم .. العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله !
وربما كان لمحمد بن الحسن عذر والشافعي يلوم !
وربما كان هذا من دلال العلماء ، فقد وقف محمد بن الحسن إلى جانبه بعد نجاته
من محتته وفتح له قلبه ووضع علمه بين يديه .

قافية النون

بِمَ يُنَالُ الْعِلْمُ ؟

الذين لمسوا فضل العلم تتوق نفوسهم إلى نبيله .

وفي بيتين يحيطنا الشافعي علما بما يُنال من العلم .

وأراك تسبقني وتقول :

إنه الذكاء .. وأقول لك : إنه واحد من ستة . فتقول : والاجتهاد ، فأقول :

بقي أربعة منها ، ثرى ما هي ؟

ويجب الشافعي :

١ - أَخِي : لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ

سَأُبَيِّنُكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بَيَان

٢ - ذِكَاؤٌ ، وَحِرْصٌ ، وَاجْتِهَادٌ ، وَبُلْغَةٌ

وَصُحْبَةُ أَسَازٍ ، وَطَوَّلُ زَمَانٍ

وأراك تقول :

العلم بحر واسع يحتاج تحصيله إلى وقت ، وكما يقولون :

الزمن جزء من العلاج .
وصحبة الأستاذ لابد منها ، فالعلم في التلقّي والحرص هو الذي يأخذ بأيدينا إلى
التفوق .

ولكن ما البلغة ؟ وأقول :
البلغة : هي القدر الضروري من الطعام والشراب الذي يبلغنا الحياة .
وأسمعك تقول: نعم فكم حال الفقر دون أن يغترف الكثيرون من بحر العلم
ما يشاءون !
لابد من بلغة إلى جانب الذكاء والحرص والاجتهاد وصحبة الأستاذ ، وطول
زمان .

معاملة الناس فن

أساس احترام النفس القناعة ..
والعزة في صون النفس عن الهوان ..
ومن هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون !
ومن هنا رأينا الشافعي يعمل ألف حساب لما قد يقال : لفلان فضل على فلان !
وقد كان العربي الحر على استعداداً لأن يستف ثرّب الأرض ولا يرى لأحد فضلاً
عليه .
ويقول الشافعي :

- ١ - قَنِعْتُ بِالْقَوَاتِ مِنْ زَمَانِي
- ٢ - خَوْفًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا
- ٣ - مَنْ كُنْتُ عَنْ مَالِهِ غَنِيًّا
- ٤ - وَمَنْ رَأَى بَعِينَ نَقْصِ
- وَصِنْتُ نَفْسِي عَنْ الْهَوَانِ
- فَضْلُ فُلَانٍ عَلَيَّ فُلَانِ
- فَلَا أَبَالِي إِذَا جَفَانِي
- رَأَيْتُهُ بِأَلْتِي رَأْنِي

٥ - وَمَنْ رَأَى بِعَيْنٍ تَمَّ رَأْيَهُ كَامِلَ الْمَعَانِي

وأراك تردد مع الشافعي مبادئ السلوك :

● من كنت عن ماله غنيا فلا أبالي إذا جفاني وقاطعني !

● من رآني ونظر إلى باحتقار بادلته نظراته .

● من رآني بعين التقدير بادلته احتراماً باحترام ، وقد أمرنا الله أن نرد التحية بمثلها
إن لم يكن بأحسن منها !

حفظ اللسان

قالوا : المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .

ورحم الله امرأ قال خيراً فغنم وسكت عن شر فسلم . ومن أجل هذا نرى إمامنا
الشافعي يحذرننا فيقول :

١ - احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

لَا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ تُعْبَانُ

٢ - كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ

كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الْأَقْرَانُ

وأراك تقول :

إلى هذا الحد يكون اللسان ؟!

إنه ثعبان يلدغ !!

كم من شجعان أبطال يهاب أمثالهم وأقرانهم لقاءهم في الحروب فسقطوا قتلى
ألسنتهم !

وأقول لك :

إن نجرح السيف قد يلتئم ويشفى وكأن شيئاً لم يكن .

أما جراحات اللسان ، فلا تلتئم ولا تُنس !

فتقول لعلك تقصد قول الشاعر :

جراحات اللسان لها الشام ولا يلتام ما جرح اللسان
العيب فينا !

إن الشعور بالنقص أول الكمال !

وانشغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوب غيره من صفات المؤمنين الذين ينشدون
الكمال !

ولكننا عندما نلتقى نُحْمَلُ الزمانَ معايينا ونهجوهِ بغير ذنب !

ولا نتوقف عند ذلك ؛ بل نتناول الآخرين وننال منهم ، ولو علمنا أن الحديث
عن عيوب الآخرين ما هو إلا وسيلة لإخفاء عيوب النفس — لأقلعنا عن هذه العادة
الذميمة التي تأنف الحيوانات الضارية المتوحشة أن تتصف بها ، وهل يأكل الذئب
لحم ذئب ؟!

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟!

فيامن يعيرون الزمان ، ويأكلون لحم الإنسان تعالوا إلى حكمة الشافعي :

١ - نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا

وَمَا لَزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

٢ - وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ

وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَا

٣ - وَلَيْسَ الذَّئْبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذَنْبٍ

وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عِيَانَا

فهل لنا من وقفة مع النفس ؟!

القصاصُ العادلُ من يظلمون !

قالوا : الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك .

وقالوا : من لم يؤدبه أبواه أدبته الأيام والليالي !

والدهر مُنْصِف ؛ فكما تدين تُدَان !

وياويل الظالمين مما ينالهم على يديه من محن وأحزان ولا عتابَ على الزمن لأنهم بدءوا والبادئ أظلم ! وهاهى ذى خبرة الشافعى يسوقها إلى الذين تحكموا فى عباد الله فتأذوا فى طغيانهم وطغوا وبغوا ، وهل تدوم الدنيا على حال ؟ فما أصدق ما قيل لو دامت لغيرك ما وصلت إليك !

١ - تَحَكَّمُوا فَاسْتَطَالُوا فِي تَحَكُّمِهِمْ

وَعَمَّا قَلِيلٍ كَأَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ

٢ - لَوْ أَنْصَفُوا أَنْصَفُوا لَكِنْ بَغَوْا فَبَغَى

عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ بِالْأَحْزَانِ وَالْمِحَنِ

٣ - فَأَصْبَحُوا وَلِسَانُ الْحَالِ يُنْشِدُهُمْ

هَذَا بِذَلِكَ وَلَا عَتَبٌ عَلَى الزَّمَنِ

وأراك تُرَدِّد :

لو أَنْصَفُوا أَنْصَفُوا .

لكن بَغَوْا فَبَغَى عليهم الدهر ، والباغى أظلم !

ولا عتاب على الزمن !!

وهل يُعَاتَبُ المنصف ؟!

مشيئة الله

قال ابن كثير : كان الشافعى يقول : القرآن كلام غير مخلوق ، ومن قال مخلوق

فهو كافر ، وقد كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف على طريقة السلف .

قال ابن خزيمة : أنشدني المزني وقال : أنشدني الشافعي لنفسه قوله :

- ١ - مَا شِئْتُ كَانَ ، وَإِنْ لَمْ أَشَأْ
وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
- ٢ - خَلَقْتُ الْعِبَادَ لِمَا قَدْ عَلِمْتُ
فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسِنَّ
- ٣ - فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ
وَمِنْهُمْ قَيِّحٌ ، وَمِنْهُمْ حَسَنٌ
- ٤ - عَلَى ذَا مَنَنْتَ ، وَهَذَا خَذَلْتُ ،
وَذَاكَ أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِينَ

[البداية والنهاية لابن كثير ، والانتقاء]

أغلى نصيحة لمن أراد أن يحيا سليماً .. !

ليس في الناس من يكره أن يعيش سليماً ..

سليماً من الهلاك ...

دينه موفور ..

وعرضه مَصُون ..

ولكن كيف الطريق إلى سلامة تامة ، ونعمة عامة ، ويوجب الشافعي عن هذا

فيقول :

- ١ - إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيماً مِنَ الرَّدَى
وَدَيْتُكَ مَوْفُورٌ وَعَرْضُكَ صَيَّنٌ

٢ - فَلَا يَنْطَقَنَّ مِنْكَ اللِّسَانُ بِسَوَاءٍ

فَكُلُّكَ سَوَاءٌ وَلِلنَّاسِ أَعْيُنُ

٣ - وَعَاشِرٌ بِمَعْرُوفٍ، وَسَامِعٌ مَنِ اعْتَدَى

وَدَافِعٌ وَلَكِنْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ

وأراك تلخص هذه النصيحة الغالية فتقول :

١ - كف اللسان عن السوء والأذى . ٢ - المعاشرة بالمعروف .

٣ - مسامحة من اعتدى .

٤ - الدفع بالتى هى أحسن .

ألم يقل الله سبحانه : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾

[فصلت/ ٣٤] .

سوء الظن

لقد أمرنا أن نحسن الظن بالناس ، فلنا ظاهرهم والله يتولى سرائرهم : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾

[١٢/ الحجرات] .

ولكن ماذا نفعل إذا كنا فى وسط جماعة من اللئام ؟

ماذا نفعل إذا كان عدونا ينشر جواسيسه من حولنا ؟

هل نحسن الظن ؟! هل نطلعه على أسرارنا ومواطن ضعفنا ؟!

لا .. لا .. إن سوء الظن عندئذ عصمة ! فكم تعرض الإنسان بسبب حسن ظنه لكثير من مشكلات الحياة وعلى رأسها الجوع والخمصة ، وعلى المؤمن أن يكون حذراً يقظاً ؛ فلا يلدغ من جحر مرتين !

وفى جو الحيل ، والخداع ، والمكر ، والألاعيب ، حيث تنعدم الرؤية السليمة

للأشياء ينبغي أن يلبس المؤمن لكل حال لبوسها طالما كان الجو من حوله ملبداً بغيوم الخداع والمكر ، لكيلا يؤخذ على غِرة !
ومن هنا كانت وصية الشافعي :

- ١ - لَا يَكُنْ ظَنُّكَ إِلَّا سَيِّئاً
إِنَّ سُوءَ الظَّنِّ مِنْ أَقْوَى الْفِطَنِ
- ٢ - مَا رَمَى الْإِنْسَانُ فِي مَحْصَةِ
غَيْرِ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْقَوْلِ الْحَسَنِ

وأراك تقول : إمام يدعو إلى سوء الظن بعد وصاياه بحسن المعاملة ؟!
ربما كان هذان البيتان لغيره ونسبا إليه ! وأقول لك : وماذا يمنع من نسبتها إليه ما دمنا نعرف مع من نحسن الظن ؟ وبمن نساء الظن ؟ إن حسن الظن بالأشرا بلاهة !

سُفُنُ النِّجَاةِ مِنْ شُرُورِ هَذِهِ الْحَيَاةِ !

من الوصايا الإيمانية :

« جَدِّدِ السَّفِينَةَ ، فَإِنَّ الْبَحْرَ عَمِيقٌ ! » .

والدنيا دار أعمال تنتقل منها إلى دار شِقْوَةٍ أو رِشَادٍ والمؤمنون المثاليون هم الذين يقولون :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[البقرة/ ٢٠١ .

وما أشبه الدنيا ببحر علينا أن نعبه إلى الدار الآخرة إنها بحر لُجِّي واسع متلاطم الأمواج ، والأعمال الصالحة هي سفن النجاة . ترى ماذا يقول الشافعي ؟

- ١ - إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
- ٢ - نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

٣ - جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفُنًا

[الكشكول ، وعين الأدب والسياسة]

وأراك تقول :

- ١ - هناك من يتعلقون بالدنيا فتشدهم إليها وينسون أنها ليست دار إقامة .
- ٢ - ولكن أهل الفطنة والذكاء لما فكروا وعرفوا الحقيقة زاحوا يعدون لما بعد الموت ، وما وسيلتهم إلى ذلك إلا الأعمال الصالحة فهي زادهم على الطريق .

الميزان العادل في معاملة الناس

الحكيم من وزن الناس بالميزان الذى يزنونه به .

والمعاملة بالمثل مبدأ من المبادئ المريحة للنفس ! نعم قد يتسامح الإنسان — كما أمر الدين — مع ذوى القرى والأهل والأصدقاء والإخوة فى الله ولكن هناك من لا ينفع معهم إلا المعاملة بالمثل فتعال نستطلع رأى الشافعى .. إنه يقول :

- | | |
|---|---|
| ١ - زِنْ مَنْ وَرَثَكَ بِمَا وَزَّكَ ، وَمَا وَرَثَكَ بِهِ فَرِثُهُ | ١ - زِنْ مَنْ وَرَثَكَ بِمَا وَزَّكَ ، وَمَا وَرَثَكَ بِهِ فَرِثُهُ |
| ٢ - مَنْ جَا إِلَيْكَ فَرُخْ إِلَيْهِ ، وَمَنْ جَفَاكَ فَصُدَّ عَنْهُ | ٢ - مَنْ جَا إِلَيْكَ فَرُخْ إِلَيْهِ ، وَمَنْ جَفَاكَ فَصُدَّ عَنْهُ |
| ٣ - مَنْ ظَنَّ أَنَّكَ دُونَهُ فَاتْرُكْ هَوَاهُ إِذْنَ وَهْنُهُ | ٣ - مَنْ ظَنَّ أَنَّكَ دُونَهُ فَاتْرُكْ هَوَاهُ إِذْنَ وَهْنُهُ |
| ٤ - وَارْجِعْ إِلَى رَبِّ الْعِبَادِ فِكُلُّ مَا يَأْتِيكَ مِنْهُ | ٤ - وَارْجِعْ إِلَى رَبِّ الْعِبَادِ فِكُلُّ مَا يَأْتِيكَ مِنْهُ |

وأراك تقول ملخصاً :

- ١ - ينبغي أن نزن الناس بما يزنوننا به .
- ٢ - ومن زارنا زرناه ، ومن جفانا وقاطعنا نقاطعه ونصد عنه .
- ٣ - ومن ظن أنه أعلى منا وأنا أقل منه لا يستحق تكريمنا له . ولا يلقى منا

إلا الإهانة .

٤ — وعلينا أن نقصد رب العباد ، فكل ما يأتينا منه .

دع الهم والقلق !

لماذا تقضى الليل ساهرا تحمل هموم المستقبل ، والأمور بيد الله يصرفها كيف يشاء ؟!

وما دمت مؤمنا بالقضاء ، فلا تقطع الأمل والرجاء فإن حمل الهموم يزلزل الأعصاب ، ويؤدي إلى الجنون ، وما دمت تؤدي واجبك ساعة بعد ساعة فإن الله يقول : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ [٣٠ / الكهف] .

أليس الذى كفاك بالأمس ما كان ، سيكفيك فى غد ما يكون ؟

دع الهم والقلق وكن متفائلا مادمت تعمل بأمانة وإخلاص ، وتعال نردد معاً حكمة الشافعى :

١ — سَهَرْتُ أَعْيُنَ ، وَنَامَتْ غُيُونُ

فِي أُمُورٍ تُكُونُ أَوْ لَا تُكُونُ

٢ — فَادْرَأْ اِهْمَ مَا اسْتَطَعْتَ عَنْ النَّفْثِ

سِ فَحَمَلَاتُكَ اِهْمُومَ جُنُونِ

٣ — إِنَّ رَبًّا كَفَاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَا

نَ سَيَكْفِيكَ فِى غَدٍ مَا يَكُونُ

وأراك تسلم إلى الله وتقول :

يارب ، لتكن مشيئتك !

يارب ، ليُنْفذْ فينا قضاؤك !

يارب ، أنت الرزاق ذو القوة المتين !

متى تهون النفس ؟!

بعض الناس تراهم أذلاء ، يعلوهم الهوان ، وتبحث عن السر ؟ وتتساءل :
كيف والله خلَقَهُم أعزاء ؟!

ألم يقل الله : ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؟! [٨ / المناقون] .

فلماذا هذا الذل ، وذاك الهوان ؟!

ويكشف الإمام الشافعي عن سر تلك الذلة التي تعلو وجوه بعض الناس .. إنه
« الطمع » .

ترى ماذا يفعل من أراد أن يريح نفسه ويصون عِرْضَهُ عن المهانة والضَّعة ؟!
تجد الإجابة الشافية في الآيات الآتية :

- ١ - أَمْتُ مَطَامَعِي فَأَرَحْتُ نَفْسِي
فَإِنَّ النَّفْسَ مَا طَمَعَتْ تَهُونُ
- ٢ - وَأَحْيَيْتُ الْقُنُوعَ وَكَانَ مَيْتًا
فَفِي إِحْيَائِهِ عِرْضٌ مَصُونُ
- ٣ - إِذَا طَمَعٌ يَحُلُّ بِقَلْبِ عَبْدٍ
عَلَتْهُ مَهَانَةٌ وَعَلَاهُ هُونُ

وأراك تقول لكل من حولك :

إياك والطمع : أُمْتُ مَطَامِعِكَ — أُخِي القناعة في قلبك حتى تعيش عزيزاً !!

فكم أذل الحرص والطمع أعناق الرجال ؟!

من أدب الكلام

عندما يهب الله الإنسان لساناً ناطقاً ويهديه إلى جوامع الكلم ، وروائع البيان فعليه أن يجنب نفسه مالا خيراً فيه من اللغو والحشو ، قراءة ، وكتابة ، ونطقاً !!
وعليه أن يعرف متى يتكلم ، ومتى يصمت ؛ فقد يكون الصمت خيراً من كلام لا داعي له ! فهناك مواقف تستدعي الصمت .
والناس كتاب مفتوح ، وفي وسعك أن تقرأ طباع الفتى في صفحة وجهه وعلى جبينه .

وقد ورد في الأثر : « إن من الشعر لحكمة » .
ويقول الشافعي الحكيم :

- | | |
|--------------------------------------|-----------------------------------|
| ١ - لَا خَيْرَ فِي حَشْوِ الْكَلَامِ | مِذَا اهْتَدَيْتَ إِلَى غَيُونِهِ |
| ٢ - وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى | مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ |
| ٣ - وَعَلَى الْفَتَى لَطَبَاعُهُ | سِمَةٌ تُلَوِّحُ عَلَى جَبِينِهِ |

وأراك تفكر :

- متى يكون الكلام من فضة ؟
- ومتى يكون السكوت من ذهب ؟
- ومتى يكون الكلام داء ؟
- ومتى يكون الصمت دواء ؟

لأبد من الصبر

لا يملك الإنسان في مواجهة الموت إلا الصبر فهو آتٍ إن عاجلاً أو آجلاً .

وحتى عندما يَسْلَم الإنسان منه إلى حين فإن الموت يلاحق أحياءه وأقرباءه وذلك مما يسىء الإنسان ولا يملك معه إلا الصبر .

- ١ - سَأَصْبِرُ لِلْحِمَامِ وَقَدْ أَتَانِي وَإِلَّا فَهُوَ آتٍ بَعْدَ حِينٍ
٢ - وَإِنْ أَسْلَمْتُ قَبْلِي حَيِّتْ وَمَوْتُ أَجَبْتَنِي قَبْلِي يَسُونِي

وعندما نتوقف عند بعض الكلمات نقول لنا معاجم اللغة :
الحِمَام : الموت ، ويسونى : يسوءنى . حذف هزتها رعاية للوزن .

كيف نعامل من يمنون علينا ؟!

وجدير بمن يَمُنّ علينا بيمينه أسداها إلينا ألا نعرف له بفضل ، وألا نحمل له في نفوسنا مشاعر الاعتراف بالجميل ، فقد كشف عن لؤمه !

- ١ - لَا تَحْمِلَنَّ لِمَنْ يَمُنُّ مِنَ الْأَنْامِ عَلَيْكَ مِنْهُ
٢ - وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ حَظَّهَا وَاصْبِرْ فَإِنَّ الصَّبْرَ جُنَّةٌ
٣ - مِنْ الرِّجَالِ عَلَى الْقُلُوبِ بِ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ الْأَسْنَةِ

[أدب الدنيا والدين]

ولا أمل مع أمثال هؤلاء إلا الصبر فهو جُنَّةٌ ووقاية مما يصيب القلوب من أثر المن .. إنه أشد من وقع الرماح !

وصمة عار

تعداد النعم ، وذكر الإحسان على من أحسنت إليه مما يحبط عمل الخير ، ويسىء إلى من أحسنا إليه .

والنفوس الأبية ترى في المن عاراً ومهانة فخير للإنسان وأكرم لُقمة من العيش

تكفيه دون مَنْ إلى يوم تكفينه .

إن الله هو المعطى ويقول لنا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾

[٢٦٤/البقرة]

فماذا يرى الشافعى فى المن ؟

إنه يرى فيه ما يراه من يُكوى بحديدة (ميسم) تترك أثرها فيه ألا تراه يقول :

- ١ - رَأَيْتُكَ تَكُونِى بِمَيْسَمٍ مِّنْهُ
كَأَنَّكَ كُنْتَ الْأَصْلَ فِي يَوْمِ تَكُونِى
- ٢ - فَدَعْنِى مِنَ الْمَنِّ الْوَحِيمِ فَلَقَمَةً
مِّنَ الْعَيْشِ تُكْفِينِى إِلَى يَوْمِ تُكْفِينِى

والمَيْسَمُ : آلة الكيِّ . والمِنَّةُ : العطية . والوَحِيمُ : سبىء الأثر . وتكفينى الأولى من الكفاية والثانية من الكفن .

تعزية

من السنة أن يعزى المسلم أخاه ، ويسليه حتى ينسيه ما ألَمَّ به ، ويخفف وقعه عليه .

وقد مات ابن لعبد الرحمن بن مهدى فكتب إليه الشافعى تعزیه ، وضمّن الكتاب هذين البيتين :

- ١ - إِنِّى أَعَزِّيكَ لَا أُنِّى عَلَى طَمَعٍ من الخلود ، وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
- ٢ - فَمَا الْمُعَزَّى بِبَاقٍ بَعْدَ صَاحِبِهِ ولا الْمُعَزَّى وَإِنْ عَاشَا إِلَى حِينِ

[منهاج اليقين ومعجم الأدباء]

وقد ورد البيت الأول في منهاج اليقين :

إني أعزبك لا أُنَى على ثقةٍ من الحياة ولكن سنة الدين

والبيت بروايته مستقيم المعنى والوزن .

أفضل العلوم

لقد كان الشافعي — رضى الله عنه — يجلس في حلقة إذا صلى الصبح ، فيجيؤه أهل « القرآن » فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا .
وجاء أهل « الحديث » يسألونه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا ..
ثم تستوى الحلقة « للمناظرة » والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا .
ثم جاء أهل « العربية » والعروض والشعر والنحو حتى يأتي المساء .. والشافعي جالس في حلقة لا يضيق بالعلم ولا بالناس .
ترى لو سئل الإمام الشافعي عن أفضل العلوم فماذا يقول :

يقول البويطي وهو من أشهر تلاميذ الشافعي الذين نشروا مذهبه :
سمعت الشافعي يقول : عليكم بأصحاب الحديث ، فإنهم أكثر الناس صواباً ؛
وقال : إذا ما رأيت رجلاً من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب
رسول الله ﷺ جزاهم الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل ، ومن
شعره في هذا المعنى قوله :

١ — كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ

إلا الحديث وعِلْمُ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ

٢ — الْعِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ : « قَالَ » .. « حَدَّثَنَا »

وَمَا سِوَى ذَلِكَ وَسُوسُ الشَّيَاطِينِ

[البداية والنهاية لابن كثير]

جنون الجنون !

العقل زينة !

وياشقاء من حرم العقل !

فما بالنا بمن جُنَّ جُنُونُهُ ؟!

قال الأصمباني : حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت محمد بن بشير الأبري يقول :

سمعت الربيع يقول : كنت عند الشافعي فجاء رجل فكلمه بكلام ، فأنشأ الشافعي يقول :

جُنُونُكَ مَجْنُونٌ وَلَسْتُ بِوَاجِدٍ طَبِيباً يُدَاوِي مِنْ جُنُونٍ . جُنُونٌ

حَسَنٌ خُلِقَكَ مَعَ الْغُرَبَاءِ !!

الربيع بن سليمان المرادي من تلاميذ الشافعي ويعتبر عمدة الرواية عن الشافعي ومن تلاميذه أيضا : الربيع بن سليمان الجيزي ويحدثنا محمد بن إبراهيم عن عبد العزيز بن أبي رجاء عن الربيع بن سليمان قال :

كتب إليّ البويطي وهو في السجن^(١) :

حَسَنٌ خُلِقَكَ مَعَ الْغُرَبَاءِ ، وَوَطَّنَ نَفْسَكَ لَهُمْ فَإِنِّي كَثِيرًا مَا سَمِعْتُ الشَّافِعِي يَقُولُ :

أَهَيْنُ لَهُمْ نَفْسِي وَأَكْرَمُهَا بِهِمْ وَلَا تُكْرِمُ النَّفْسُ الَّتِي لَا تُهْنِيهَا !

[حلية الأولياء وآداب الشافعي]

(١) مات وهو في السجن لامتناعه عن القول بخلق القرآن .

وأراك تقول :

إن هذا الخلق من الأخلاق العربية القديمة حيث يقول الشاعر العربي :

وإني لعبد الضيف مادام نازلاً وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

وأراك تسألني :

كيف لا تُكْرِمُ النفس التي لا تهينها ؟

وأقول : إن تواضعه لضيوفه ، وسهره على خدمتهم وراحتهم هو أحد العوامل في إكرام الناس له ولولا ذلك لما كبر في أعينهم ولما كرموه !

وقد وصف الله من اتبعوا نبيه بقوله : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[٥٤ / المائدة]

هـ

قافية الهاء

شتان ما بين الفقيه والسفيه

كان أستاذنا يعلمنا كيف نتعامل مع السفهاء فيقول :

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

ونسأله لماذا ؟

فيجيب : إن السفه طيش ، ونقصان عقل ، وجهل في الأمور الدنيوية والأمور الدينية ؛ فكيف يتم التفاهم مع السفيه ؟!

وقد عانى الشافعي من تنطع السفهاء ومبالغتهم وتعمقهم في مخالفته ظناً منهم أنهم

سوف ينتصرون عليه ، وأنى لهم ذلك ، وقد غلب عليهم الشقاء .. ثرى ماذا يقول
الشافعى فى أولئك السفهاء ؟!
قال الشافعى رضى الله عنه :

- ١ - ومنزلُ السفيه من الفقيه كمنزلِ الفقيه من السفيه
- ٢ - فهذا زاهدٌ فى قربِ هذا وهذا فيه أزهْدُ منه فيه
- ٣ - إذا غلب الشقاء على سفيه تنطَّع فى مخالفةِ الفقيه

وليس فى جدال أمثال هؤلاء إلا الخسارة وضياح الجهد والوقت ولقد يصدق فى
أمثالهم القول : « إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت » !!

قافية الياء والألف المقصورة حُبِّ الفاطمية

نصلى على النبى ﷺ وآله فى صلاتنا وخارجها حُبًّا له وتكرima ، وقد أمرنا
بذلك :

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا
تسليما ﴾ [٥٦ / الأحزاب]

فلا حرج على الشافعى إذا ذكر عليا وسبطيه وفاطمة الزكية بما هم أهل له !
وهل يعد ذلك رفضاً وخروجاً على عقيدة أهل السنة والجماعة ؟!
إن الشافعى ليبراً ممن يرون الرفض حب الفاطمية .

- ١ - إذا فى مجلسٍ نذكرُ علياً وسبطيه وفاطمةَ الزكية

- ٢ — يُقَالُ تَجَاوَزُوا يَا قَوْمُ هَذَا فَهَذَا مِنْ حَدِيثِ الرَّافِضِيِّهِ
٣ — بَرِئْتُ إِلَى الْمُهِمِّينَ مِنْ أَنْاسٍ يَرُونَ الرَّفْضَ حُبَّ الْفَاطِمِيِّهِ

وأراك تقول :

نعم لا أرى بأساً في حب علي والحسن والحسين وفاطمة الزكية . وكيف لا وهم
آل البيت الأطهار !

الإعراض عن الجاهلين

وصف الله المؤمنين بقوله :

- ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [٥٥/ القصص]
وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [٦٣/ الفرقان]
والجاهلون : هم السفهاء الطائشون .

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض عنهم .

- ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [١٩٩/ الأعراف]
والشافعي وقد عاش تجربة مريرة وصادف الكثير من الجهلة والسفهاء يقول :

- ١ — أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِ السَّفِيهِ فَكُلُّ مَا قَالَ فَهُوَ فِيهِ
٢ — فَمَا ضَرَّ بِحَرِّ الْفُرَاتِ يَوْمًا أَنْ خَاضَ بَعْضُ الْكِلَابِ فِيهِ

وأراك تقول : سأعرض عنهم ، ولن يضرني خوضهم بالباطل ، وهل يتأثر البحر
بخوض الكلاب فيه ؟!

نظرات في الحياة ومبادئ للسلوك

كل بني آدم خطاء ، ولكل منا عيوبه ، والله حلیم ستار !

ومن الناس من يرانا بعين الحب فيتغاضى عن عيوبنا ، ولا يحاول نشرها على الناس ، أملاً في إصلاح ما فسد !

وهناك من يرانا بعين ساخطة فيجعل من الحبة قبة أملاً في أن تشيع المساواة بين الناس ! ورغبة في فضيحتنا !

إن الشافعي يحدثنا عن « عين الرضا » و « عين السخط » وعلينا أن نعرف من يحبنا ومن يكرهنا .

ونراه يتخذ المعاملة بالمثل مبدأ سلوكياً في التعامل مع الناس ، لأنه غنى عنهم في الدنيا أما في الآخرة فأشد غنى !

تعال إليه تعلمنا كيف نعامل الناس ؟

- ١ - وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ غَيْبٍ كَلِيلَةٌ
وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا
- ٢ - وَلَسْتُ بِهَيَّابٍ لِمَنْ لَا يَهَابُنِي
وَلَسْتُ أَرَى لِلْمَرْءِ مَالاً يَرَى لِيَا
- ٣ - فَإِنْ تَدُنْ مِنِّي ، تَدُنْ مِنْكَ مَوَدَّتِي
وَأِنْ تَنَأْ عَنِّي ، تَلْقَنِي عَنْكَ نَائِيَا
- ٤ - كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَّائِهِ
وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَعَانِيَا

وأراك قد عرفت : موقف كل من المحبين والساخطين منا ؟
ومن أولئك الذين لا يهابهم الشافعي ؟ ومن أولئك الذين لا يرى لهم حقوقاً عليه ؟ ولمن يعطى مودته ؟ وعنمن ينأى ويبعد ؟ ولماذا ؟

الرضا بالقضاء !

هناك مفارقات يَحَارُ فيها الفكر ..

ولكنه قضاء سابق للديان سبحانه ..
وقد نضعف أمام مرّ القضاء ولا نقوى على تحمله فنشكو ..
ومن عرف الدهر تصبر للبلوى ولم يظهر الشكوى فالشكوى لغير الله مذلة !
ترى ما تلك المفارقات ؟ ويجب الشافعى فيقول :

١ - أَرَى حُمُرًا تُرْعَى وَتُعْلَفُ مَا تَهْوَى

وَأُسْدَاءَ جِيَاعاً تَظْمَأُ الدَّهْرَ لَا تُرَوِّى

٢ - وَأَشْرَافَ قَوْمٍ لَا يَنَالُونَ قُوَّتَهُمْ

وَقَوْمًا لِنَامًا تَأْكُلُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى !

٣ - قَضَاءٌ لِدَيَّانِ الْخَلَائِقِ سَابِقٌ

وَلَيْسَ عَلَى مُرِّ الْقَضَا أَحَدٌ يَقْوَى

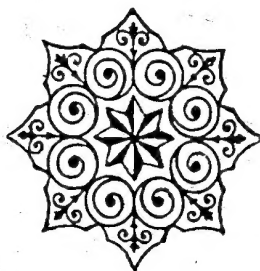
٤ - فَمَنْ عَرَفَ الدَّهْرَ الْخَوُونَ وَصَرَفَهُ

تَصَبَّرَ لِلْبَلْوَى وَلَمْ يُظْهِرِ الشَّكْوَى

وأراك تقول :

رحم الله الشافعى بقدر ما أسداه إلينا من تجارب ، وما قدمه فى ديوانه من خبرات ونصائح غاليات .

والحمد لله الذى بنعمته الصالحات



فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
١٠	من تجارب الإمام (مع الأيام - مع النفس - مع القضاء)
١٢	الدعاء .. وهل يرد القضاء
١٣	فراق الأحبة - سوء التقدير
١٥	هذه هي الدنيا - نهاية الإنسان
١٨	سلوك الكبار مع الأندال
٢٠	داو السفاهة بالحلم - البخل .. والظلم
٢٣	الله حسبي
٢٤	ميزان التفاضل عند الشافعي
٢٧	الضرب في الأرض
٢٨	هيبة الرجال وتوقيرهم
٢٩	كذب المنجمون
٣٠	معاملة اللئيم
٣٣-٣٢	هكذا الكرماء - آداب التعلم
٣٥-٣٤	الصدوق المثلث - أ شحّة على الخير
٣٦	محط الرجاء - الصفح الجميل
٣٨	متى يكون السكوت من ذهب
٣٩	الخروج من النوازل !!
٤٦-٤٤	فراصة الفقيه - الفقيه والصوفي
٥١	عدو يتمنى الموت للشافعي
٥٢	الناس بين شامت وحاسد
٥٤	عجباً لمن يضحك والموت يطلبه !!
٥٦	لا تيأس من لطف ربك !!
٥٧	لولا ولولا
٦٣-٦١	فوائد الأسفار - عداوة الحاسد
٦٥	جنان الخلد - الهمة العالية
٦٦	الوحدة خير من جليس السوء

ع
٢٥٢

٦٩-٦٨	اليقظة والحذر - أدب المناظرة
٧٣-٧٢	فضل السكوت - الرضا بالقدر
٧٧-٧٤	الشوق إلى مصر - احذر مؤدة الناس
٨١	البحث عن صديق - مناجاة !
٨٧-٨٦	شهادة حق - عادة الأيام
٩١	متى نشتغل بعيب أنفسنا عن عيوب الآخرين
٩٩-٩٥	الحب الصادق - رأى إمام في إمام !!
١٠٤-١٠٢	ذئاب في ثياب متسكين - أيهما ألد ؟
١٠٧	ماذا بقي من أخلاق الناس ؟!
١١٢-١١٠	هل يرتبط الرزق بالعقل ؟ الصديق الجاهل !
١١٣	من تجارب الإمام الشافعي
١١٦	صُنْ النفس عما يشينها !
١١٩	إياك وأبواب الملوك والحكام !
١٢٦-١٢٥	فل الحياة وهول الممات - فضل العلم
١٣٣-١٢٩	عَفُوا تعَفْ نساؤكم !! مناجاة !!
١٣٨	بِم يُنال العلم ؟
١٣٩	معاملة الناس فن
١٤٢	القصاص العادل ممن يظلمون
١٤٥	سُنْ النجاة من شرور هذه الحياة !
١٤٨-١٤٧	دع الهم والقلق ؟ - متى تهون النفس
١٥٠-١٤٩	من أدب الكلام - كيف نعامل من يمتن علينا ؟!
١٥٢	أفضل العلوم
١٥٦	نظرات في الحياة ومبادئ للسلوك
١٥٧	الرضا بالقضاء